الاغتراب في حياة المعري وأدبه

الأستاذ الدكتور حسين جمعة[*]

الملخص

الاغتراب عند المعري بكل أنماطه جسد صفاته وحياته وسلوكه ومعاناته وحالات الألم والأرق، واتخذ أبعاداً واقعية ورمزية، ونفسية، واجتماعية، ولاسيما حين عَبَس الزمان بوجهه، وعصفت الأحداث بحياته وحياة المعرة والأمة. لذلك يعدّ شعر الاغتراب عند المعري شعر الألم الإنساني برمّته؛ شعر عدم الرضا بالبؤس والشقاء والجهل والفقر، والاختلاف والتمزق، والفساد والموبقات و... ما يعني أن أدبه يمثل اغترابات شتّى تتسم بروح السمو عن مصائبها، لأنهُ يواجهها بكل ما لديه من قدرة وإبداع، وحس متمرد يعبّر عن نبضه الحر والنقي... لذا جاء اغترابه أبعد ما يكون عن مبدأ التعويض الذي عرفه بشار بن برد أو عن مبدأ الاستلاب والانكفاء، على الرغم من أن مفهومه للاغتراب كان ينبثق من مشكاة فلسفته التشاؤمية، ومشكاة مبدأ الزهد والتنسّك، أي إن مفهوم الاغتراب لا يفارق منهج العقل مهما كان التنافر والتناقض بينه وبين مجتمعه...

وقد حاول هذا البحث أن يبرز ذلك من خلال الوقوف عند مفهوم الاغتراب والغربة لغة واصطلاحاً، ثم كشف مفهوم المعري له. وقد ركز على عوامل الاغتراب ومظاهره في الاغتراب الذاتي كالعمى والرحلات واعتزال المجتمع، وبيَّن صداه في شعره، ثم تناول الاغتراب الموضوعي في الشعر كالاغتراب السياسي والفكري والثقافي والديني والوطني والاجتماعي رابطاً بينه وبين المكان والزمان.

ولم يهمل البحث جانب النثر فوقف عند الاغتراب اللغوي والفني خاصة في رسالة (الغفران) و(الصاهل والشاحج) و (الملائكة) و(الفصول والغايات).

---

[*] قسم لغة عربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

تمهيد:

1 ــ مفهوم الاغتراب.
  أ ــ مفهوم الاغتراب والغربة
  ب ــ المفهوم الاصطلاحي الفلسفي المعاصر للاغتراب
  ج ــ مفهوم الاغتراب عند المعري (رؤية وتحليل).
2 ــ عوامل الاغتراب ومظاهره:
  أ ــ الاغتراب الذاتي.
    1 ــ العمى.
    2 ــ الرحلات.
    3 ــ الاعتزال.
      أــ اعتزال المجتمع
      ب ــ اعتزال الأطعمة والألبسة الوثيرة و...
    4 ــ صدى الاغتراب الذاتي:
  ب ــ الاغتراب الموضوعي:
  أ ــ الاغتراب في الشعر
    1 ــ الاغتراب السياسي/ الفكري.
    2 ــ الاغتراب الفكري/ الوطني.
    3 ــ الاغتراب الاجتماعي/ الديني.
    4 ــ الاغتراب الثقافي/ الديني الفلسفي.
  ب ــ الاغتراب في النثر:
  ــ الاغتراب اللغوي والفني
    1 ــ الاغتراب في رسالة الغفران.
    2 ــ الاغتراب في رسالة الصاهل والشاحج.
    3 ــ الاغتراب في رسالة الملائكة.
    4 ــ الاغتراب في الفصول والغايات.
ــ خاتمة
ــ المصادر والمراجع

تمهيد:

أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد المعري التنوخي المكنى بأبي العلاء[1]؛ ـــ والمولود بالمعرة سنة 363 هـ/ 973م والمتوفى بها 449 هـ/ 1057م وقبره معروف فيها، ـــ أديب مبدع؛ وصاحب اختراعات عجيبة في التأليف، لم يسبقه إليها أحد، إذ استطاع أن يقبض على جمر الإبداع، وينفخ في صلصال الحياة العقلية ليونع قمحاً شهياً يفيض بشهد العطاء، وكذلك كانت فلسفته فريدة كفرادة إبداعه وحياته، وهي الفلسفة التي أثارت جدلاً طويلاً..

إذاً أبو العلاء المعري أديب ذو نكهة خاصة ولاسيما حين وفق أيما توفيق في توظيف الخيال للشعر والفلسفة، فغدا شاعراً فيلسوفاً أيقظ العقول من مرابضها، مفيداً من مذهب العقل الذي جمع بين علم الكلام والمنطق... وتميز بثقافة متشعبة متنوعة وغزيرة نحواً ولغة، أدباً وفقهاً؛ عقائد ومذاهب و...

لهذا كان سيد الثقافة والفكر والأدب واللغة في عصر ساد فيه الانحراف والفوضى، والفتن والتمزق الفكري والسياسي والاجتماعي والديني، و... ما جعله يصر على تخليص زمانه من أوجاع الجهل والتخلف والفقر، والعبث الفكري والديني... ويتطلع إلى عناق الأفق المفتوح الذي يخلص الإنسان من كل عوامل الظلم والجهل و.. وقد ظهر ذلك كله في آثاره العديدة مثل (سقط الزند، ولزوم ما لا يلزم، والفصول والغايات، ورسالة الغفران، ورسالة الصاهل والشاحج، ورسالة الملائكة؛ ورسالة المنيح، وزجر النابح و... ومعجز أحمد) [2].

---

[1] وردت ترجمته في كثير من المصادر والمراجع منها وفيات الأعيان لابن خلكـان 113/1 و116 وتاريخ بغداد 240/4 ـــ 241 وبغية الوعاة للسيوطي 136 ـــ 137 ومعجم الأدباء (ياقوت الحمـوي) 107/3 ـــ 217 والأعلام 157/1 و 121/8 وإبداع ونقد 125.

[2] انظر الإنصاف والتحري 12 ـــ 13 و105 ـــ 118.

وبناء على ما تقدم فقد شغل المعري الناس قديماً وحديثاً، فكتبت عنه المجلدات الكثيرة والعظيمة شرقاً وغرباً؛ وأقيمت الندوات والمناظرات في آثاره؛ واختلف فيها العلماء والمفكرون والباحثون؛ وتركز هذا الاختلاف في فلسفته وعقيدته و... وإن كان هذا الاختلاف أصاب شيئاً غير قليل من أدبه... فالاختلاف في صحة عقيدته، بلغ شأواً كبيراً بين الباحثين في القرن العشرين وما يليه؛ فمنهم من ألحقه بأصحاب الكرامات من الأولياء، ومنهم من صَيَّره زنديقاً ملحداً؛ ومنهم من ترك أمر الحكم بعقيدته... وفق ما حدثنا عنه (أحمد تيمور) في كتابه (أبو العلاء المعري).(3)

وأياً كان الشأن في ذلك فالمعري كان له كعب عظيمة في الأدب والفلسفة؛ وكانت سيرة حياته مدار وقفات لكل متأمل فيها.. وسيبقى له ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...

ولهذا كله رحت أتأمل آثار المعري، وحياته تأملاً طويلاً ــ وكنت وقفت عند (أدب الخيال في رسالة الغفران) من قبل(4) ــ فوقعت على ظاهرة الاغتراب في حياته وأدبه؛ إذ بدت لي هذه الظاهرة أصلاً لكل ما صدر عنه، وقام به، دون أن أقع في سطوة الانجذاب والمبالغة... فالذات الاغترابية هي الظاهرة التي لفتت انتباه بعض الشعراء والباحثين، فنظم حسان عطوان فيها ديوانه الذي عنونه (اغترابات أبي العلاء المعري) وأشارت الدكتورة سميرة سلامي إلى مواضيع عدة منها (5). فظاهرة الاغتراب استطاعت أن تلقي بظلها على حياة المعري وأدبه؛ وشكَّلت نسقها العام الذي انبثق منه أغلب الأنساق الذاتية والموضوعية؛ أي تجذَّر في (الأنا) الخاصة للمعري وكل ما يدور حولها من أنساق أخرى سياسياً وفكرياً واجتماعياً ودينياً وخلقياً.

---

(3) انظر أبو العلاء المعري 132 وانظر الفصول والغايات 41 ونثر أبي العلاء 48 ــ 51.

(4) انظر إبداع ونقد 125 ــ 162.

(5) انظر اغترابات أبي العلاء ــ للشاعر حسان عطوان ــ والاغتراب في الشعر العباسي للدكتورة سميرة سلامي 121 ــ 132 و 169 ــ 175 و 178 ــ 181 و 185 ــ 187 و202 و211 ــ 214.

ومن ثمة فإن المنهج النفسي كان سبيلنا الأول إلى إدراك الأنساق الاغترابية المضمرة أو الظاهرة، ما فرض علينا الاستعانة بعدد آخر من المناهج...

ولن يستقيم لنا ذلك إذا لم ندرك مفهوم الاغتراب في اللغة والاصطلاح، لنقف من بعد عند مفهوم الاغتراب لديه وتجلياته الذاتية والموضوعية وهي تجليات تتداخل في العوامل التي أدت إليها، وتجسدت صورة فنية وفلسفية في شعره ونثره.

1 ــ مفهوم الاغتراب:

الاغتراب (Alienation) قديم قدم الإنسان، متجذر في مواقفه من الذات والكون والحياة والمجتمع والأنشطة المتنوعة... وقد تجلى في صميم المعاناة الذاتية ومفارقتها للجوهر الطبيعي... وهذا يعني أن الاغتراب ظاهرة نفسية فكرية ذاتية ثم غدا ظاهرة اجتماعية ثقافية اقتصادية تستند إلى التنافر بين الذات والآخر والطبيعة والنشاط والعمل والزمان والمكان و... ما جعلها ظاهرة مركبة ومعقدة تعبر عن الانسلاخ والاستلاب، وضعف القدرة على التكيف؛ تارة، وتعبر عن الغرابة والتفرد والتميز والاختلاف تارة أخرى...

ولما كانت ظاهرة الاغتراب كذلك فقد انتهت إلى إشكالية كبرى في كثرة الاتجاهات واختلاط دلالتها الفلسفية والاجتماعية و....(6) ثم انتهت إلى الاختلاف في تحديد مفهوم الاغتراب أو تعريف جامع مانع له، فلم يتفق الباحثون على تعريف واحد.. بل صار الاتفاق على تعريف له متعذراً بين الدارسين والباحثين؛ قديماً وحديثاً، ثم انتقل الاختلاف إلى تحديد ماهيته هدفاً ووظيفة تبعاً للتصور الفكري الفلسفي...

---

(6) انظر الاغتراب 56 وما بعدها.

أ ــ مفهوم الاغتراب والغربة:

الاغتراب في الأصل اللاتيني (Alienatio) تحويل ملكية شيء ما من شخص إلى شخص بالإكراه والانتزاع والإزالة، وهذا مستمد من فعل (Alienare)(7).. وإذا كانت اللغة الإنكليزية قد احتفظت بهذا المعنى فإنها انتقلت به إلى حالة فقدان الوعي أو الابتعاد عنه؛ أو فتور العلاقة الودية مع الآخر، ما جعله يماثل مصطلح (الغربة ــ Entfremdung). وكذلك هو في اللغة الألمانية (Fremd) فهو الأخذ والسلب والسطو والاضطراب العقلي...(8)

وحين قصرت اللغة دلالة المصطلح على الاستخدام الإنساني فإن معناه اللاهوتي بقي ((يتعلق بالغربة بين الله وشخص ما))(9).

أما الاغتراب في اللغة العربية فهو مشتق من (غرب) ومثله (الغُرْبة) وغلبت عليه دلالة النزوح عن المكان/ الوطن طوعاً أو كرهاً(10)... ومن ثم صار الاغتراب عند العرب يمثل عذابات الشوق والحنين للوطن عند الإنسان وعند الحيوان على السواء؛ أياً كانت الأسباب التي دفعته إلى الغُرْبة، كما وجدناه عند المتلمس وزهير بن أبي سلمى وعدي بن زيد في العصر الجاهلي، وأبي فراس الحمداني في العصر العباسي، وأحمد شوقي والجواهري والبياتي؛ في العصر الحديث..... ومن ثم صار الاغتراب والتغرُّب والغربة يعني البعد والمفارقة عن المكان والتعلق به والشوق إليه، والسعي إلى معانقته، ثم دخل في الاستعمال الإنساني ــ في المعنى ــ ذاته فقيل

---

(7) انظر السابق 63.

(8) انظر المرجع السابق 64 ، 65 و76 ــ 68.

(9) المرجع السابق 69.

(10) انظر لسان العرب (غرب)وانظر الغربة في الشعر الجاهلي 40 ــ53 والاغتراب في الشعر العباسي33.

(الغريب والغرباء)، ثم صار لفظ (الغرابة) يدل على المفارقة للأشياء المألوفة...[11] وعُدَّ الاغتراب الطوعي اغتراباً إيجابياً ــ أحياناً ــ بعكس الاغتراب القسري، المقارب للنفي السياسي كما دل الاغتراب على مفارقة العقل وفقدانه.

وأياً كان مفهوم الاغتراب في النفس فهو ناتج عن انعطاف قلق يعاني منه المغترب تجاه كل مألوف، أو تجاه الأزمات، فيصاب بالسأم والاضطراب والتوتر؛ ويقل إنتاجه، لذا يقال له: اغترب تتجدد وهنا يدخل الاغتراب في باب المشيئة.... وهذا يعني أن اغتراب المرء عن المكان/ الوطن يعدُّ مفارقة نفسية واجتماعية ومكانية وزمانية من أجل إعادة الذات إلى جوهرها الطبيعي، ما يربط هذا كله بالقلق الوجودي...

وهذا المفهوم يخالف مفهوم الاغتراب النفسي الروحي للإنسان الذي يكون داخل وطنه ومجتمعه فيستشعر الانقطاع عنهما، ويتولد لديه تنافر داخلي عظيم، بوصفه اغتراباً ينبثق من مفارقة النفس والعقل لما يراه المغترب أو الغريب في وطنه وبيئته مغايراً لمشاعره الذاتية، ورؤيته العقلية، ومبادئه الفلسفية. وهنا نجد أن الاغتراب يغدو معبّراً عن الاغتراب الروحي الحاد نتيجة أسباب شتى ذاتية واجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية، وثقافية و..... وهذا ما عرفه العرب ــ أيضاً ــ وعبر عنه عدد من الشعراء منذ القديم أمثال (الصعاليك والخلعاء وعنترة وطرفة بن العبد في العصر الجاهلي[12]، والكميت والطرماح وأبي عبيد بن قيس الرقيات في العهد الأموي وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري في العصر العباسي...). وهذا يعني أن الاغتراب أخذ يتجه إلى قضية فكرية سياسية اجتماعية، فضلاً عن كونه حالة نفسية عقلية، عند

---

[11] انظر لسان العرب (غرب)وانظر الغربة في الشعر الجاهلي 40 ــ53 والاغتراب في الشعر العباسي33.

[12] انظر كتاب الغربة في الشعر الجاهلي.

أولئك الأدباء والشعراء، إذ كان يحاول أحدهم الاندماج في المجتمع، وإدارته فلم يفلح... وهذا ما آل إليه حال الاغتراب لدى بعض المفكرين المعاصرين، على الرغم من اكتسابه رؤية فلسفية لديهم...

ب ــ المفهوم الاصطلاحي الفلسفي المعاصر للاغتراب:

يبدو لي أن مفهوم الاغتراب ــ مصطلحاً ودلالة، هدفاً ووظيفة ــ قد تطور في ماهيته تبعاً لاختلاف الزمان والمكان، والتصور الفكري الفلسفي، وإن ظلت الذات الفردية النفسية مرتكزاً ينبثق منها في التنافر الذاتي للفرد، أو في التنافر بينه وبين غيره إنساناً ومجتمعاً، كوناً وطبيعة، نشاطاً وعملاً،.... فهو مفهوم يؤكد التجاذب النفسي بين الرضا والرفض، بين الحرية والقهر؛ بين الانفتاح والانغلاق؛ بين الرجاء والإحباط، بين سقوط الإنسان ومحاولة تجاوز هذا السقوط أو الانحراف، بين التوازن والاضطراب... إنه ــ بمعنى آخر ــ تعبير عن التوتر والقلق النفسي، وضياع الذات أو استشعار الخوف من فقدان الأمن والأمان، والفرح والسعادة، والتواصل مع الجوهر الطبيعي..

إنه صراع ذاتي داخلي للفرد، وصراع بينه وبين الوسط المحيط به للخلاص من القهر والظلم والاستغلال، والعبث والفوضى؛ والزلل والخطأ، والنزع والاغتصاب، والفساد والانتهاك...

لهذا صار الاغتراب ــ عند هيغل، مثلاً ــ يعني أن يغرّب الإنسان نفسه عن طبيعته الجوهرية، ليصل إلى حدّ التطرف في التنافر مع ذاته وقهرها(13)، بمعنى آخر ((أن يضيّع الإنسان شخصيته الأولى))(14).

---

(13) انظر الاغتراب 76 ــ 78 و 80 و 85 ــ 106 و 116 .

(14) انظر المعجم الفلسفي 1/ 765 والاغتراب 132 ــ 134.

ثم صار مصطلح الغربة أو الاغتراب الفردي ـ عند ماركس ـ متطابقاً مع مفهوم استلاب حرية الإنسان فقال: الغربة ((أن يفقد الإنسان حريته واستقلاله الذاتي بتأثير الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والدينية...))(15) أي إن الغربة أو الاغتراب حالة نفسية انفصامية داخلية ناتجة عن أسباب خارجية، على الرغم من أن الحالة النفسية أصل؛ والأسباب فرع... فلما كانت الذات الفردية موضوعاً مستقلاً عن تلك الأسباب، وعن الموروثات وعن البيئة كان لابدّ من إحداث توازن بين الذات والكون والحياة والمجتمع و... أي على الفرد ألا يقع تحت وطأة استغلال الآخر الاقتصادي والاجتماعي والفكري... لأن ذلك سيزيد من معاناة الضغط النفسي الذاتي... ما يشي بأن الاغتراب معادل موضوعي بين الذات والوسط المحيط؛ أياً كانت تأثيراته وماهيته ووظيفته وأهدافه(16)...

ولعل ذلك كله يفسر مفهوم (جان جاك روسو) للاغتراب، إذ رأى أنه اغتراب اجتماعي في ماهيته؛ ثم يتحول إلى اغتراب نفسي بخلاف غير قليل من المفكرين والباحثين فقال: "أن تغترب يعني أن تعطي أو أن تبيع؛ فالإنسان الذي يصبح عبداً لآخر لا يعطي ذاته؛ وإنما يبيع ذاته على الأقل من أجل بقاء حياته... أما الشعب فمن أجل ماذا يبيع حياته"(17). هكذا أدخل جان جاك روسو مفهوم الاغتراب في صميم نظريته للعقد الاجتماعي.

ويرى (روسو) في كتابه (إميل) أو (العبارة) أن الإنسان يغدو أرخص في السوق

---

(15) انظر المعجم الفلسفي 765/1 والاغتراب 35 ـ 38 و 45 و 129 ـ 132 و 134 ـ 156.

(16) انظر مادة (الاغتراب Alienation -1) في دائرة المعارف البريطانية E.B، والاغتراب الكافكاوي ورواية المسخ نموذجاً-إبراهيم محمود- مجلة عالم الفكر-مجلد 15-عدد 2-الكويت- 1984-ص78- 79.

(17) العقد الاجتماعي ـ جان جاك روسو ـ ترجمة ذوقان قرقوط ـ دار القلم ـ بيروت ـ د/تا ـ الفصل الرابع ـ ص41 وانظر الاغتراب 71 ـ 75 و 106.

ما دام قد باع نفسه(18)...

ولعل هذا المفهوم للاغتراب ينتمي إلى الفكر الوجودي(19) الذي شاع في الغرب عامة وفرنسا خاصة، إذ أصبح له اتجاهان: اتجاه إيجابي يجعل الإنسان نفسه في خدمة مجتمعه والدفاع عنه، واتجاه سلبي يجعل فيه ذاته الإنسانية مطروحة للبيع والشراء، ولاسيما حينما تتسلط على إرادته وروحه وعقله قوى خارجية تمارس عليه القهر والاستغلال والعنف والتزمت...

فالمعنى الفرنسي للاغتراب (Alienation) ينبثق من فلسفة الفكر الوجودي الذي شاع في الغرب نتيجة معاناته الشديدة في القرون الوسطى(20)... فشرع الإنسان الغربي يعتقد بأنه جزء من كون مادي يسير بقوانين آلية، ما جعله ينتصر للعلم، ويعلي من مكان الإنسان الفردية في نطاق العلاقات الاجتماعية المادية؛ أي إن الإنسان يعدُّ المرتكز الأول في النظام الاجتماعي، وهو قادر على بناء الحق على الأرض...

وهذا التصور ناتج من كثرة الضحايا التي عرفها الغرب في العصور الوسطى بسبب القهر والظلم والعنف والاستغلال والاستعباد الذي مارسه رجال الكنيسة واللاهوت آنذاك... ما أدى إلى ضعف العلاقة الروحية مع الذات الإلهية...

وبهذا ندرك أن الاغتراب الجديد في الغرب كان معادلاً موضوعياً لواقع اجتماعي مُرّ وقاس... ولكنه في الوقت نفسه اتجه إلى أشكال عِدَّة على الصعيدين الفردي والاجتماعي، لأن الإنسان الغربي وقع من جديد في حالة ضياع وجودي مادي في نظام لا روح فيه... فكثر القلق والتوتر والإحباط ثم الانتحار والفساد والعبث

---

(18) انظر ابن باجة وفلسفة الاغتراب ــ د. محمد إبراهيم الفيومي ــ دار الجيل ــ بيروت ــ ط1 ــ 1988 ــ ص78 ــ 80.

(19) انظر المعجم الفلسفي 562/2 و564 ــ 565.

(20) انظر الاغتراب 71 وما بعدها.

والفوضى والعنف غير المسوغ، والاستغلال الرخيص... على الرغم من تبني الغرب لمفهوم العلم؛ ولإعلاء مكانة الإنسان والعمل، والعقل...

ج ــ مفهوم الاغتراب عند المعري (رؤية وتحليل):

مفهوم الاغتراب عند المعري مفارقة اغترابية نفسية لجوهر الذات الطبيعية بوصفها تنبثق من عوامل عدة منها، (صفات المعري ومواقفه من الطبيعة والكون، وفهمه للحياة والموت، وطبيعة العلاقات الاجتماعية؛ وصحة العقيدة الدينية، ومعرفة الناس بالخير والشر) علماً أنَّ الخير مذهبه؛ والعقل مبدؤه؛ والإيمان بالفناء سجيته إذ كل إنسان مآله إلى التراب والبقاء لله؛ فيقول من مقطعة بلغت سبعة أبيات:(21)

وجدْتُ سجايا الفضل في الناس غُرْبَةً   وأَعْدم هذا الدهر مُغْتربيهِ

وإن الفتى، فيما أرى، بزمانه   لأشبه منه شيمة بأبيهِ

ووالدنا هذا التراب، ولم يزل   أَبَرَّ يداً من كل منتسبيه

يؤدي إلى من فوقه رزق ربه   أميناً ويعطي الصَّوْن محتجبيه

فاغتراب المعري لم ينشأ من النزوح عن الوطن ــ وإن وقع شيء منه لديه ــ، ولكنه نشأ من اغترابه الروحي والفكري المعبر عن مفهوم الاتساق والانسجام(22) بين ذاته والمجتمع الذي يعيش فيه، ولذلك عانى اغتراباً جسدياً وروحياً، ما جعله يعتزل في بيته، بعد أن كان العمى وسيلته إلى راحته المتمثلة في عدم رؤية الناس...

.. فحياة المعري مكابدة ومجاهدة وشقاء ومعاناة منذ كان في الثالثة من عمره ثم

---

(21) لزوم ما لا يلزم 2/ 627.

(22) انظر مفهوم الانسجام في المعجم الفلسفي 159/1 ــ 161.

بعد مفارقته البصر في الرابعة ولم يدرك من الألوان إلا الأحمر بوصفه آخر ما رآه... وكلما امتدّ به العمر وخَبرَ أساليب العامة والخاصة ازداد تمرده ومن ثم اغترابه على تلك الأساليب التي اطمأن إليها الناس في صميم التصاقهم بالخداع والكذب؛ والزيف والنفاق و... " وكان منذ حداثته يسيء الظن بالناس، لا ينظر إليهم نظرة الرضى والطمأنينة، ويميل إلى الانقباض عنهم؛ وحُبِّبت إليه العُزْلة"(23) والانغلاق على الذات استشعاراً بالاغتراب الايجابي الواعي وليس استشعاراً بالانحراف والانطواء، والانفصال والأنانية(24)، أي إن الذات (الأنا) المعرية الاغترابية كانت تغوص في لجج الحياة ومجموعة الأنساق الثقافية والاجتماعية دون أن تغرق في لجة الظلام التي سقط فيها عدد غير قليل من الناس.

لهذا كان يحب الحياة ولم يكرهها يوماً ما(25) وهو الذي خبرها قبل الأربعين، كغيره من الناس فقال:(26)

أحبك أيها الدنيا كغيري   وأشراني قِلاك، ولست أشري
ونهوى العيش فيك مع الرزايا   وما طَوّلت منِ خمْس وعشْر

وكذلك قال:(27)

أريد من الدنيا خمود شرورها   فتوقدُ ما بين الجوانح تارَها

---

(23) انظر الإنصاف والتحري 18.
(24) انظر المعجم الفلسفي 152/1 و 164، والاغتراب 164 ــ 165 و 180 ــ 185.
(25) انظر حديث الأربعاء 137/2.
(26) لزوم ما لا يلزم 1/ 555.
(27) لزوم ما لا يلزم 1/ 495 وانظر فيه 411 و 415 و 433 و 490.

وتظهر لي مقتاً وأُضْمِرِ حبها   كأني جهول ما عرفت شنارَها

ومن ثم مال إلى الزهد والتنسك والتمسك بمكارم الأخلاق والاكتفاء بالقليل القليل وَفْق قناعة عقلية وفلسفة عابسة متشائمة(28)؛ أي إنه أحب الخير وكره الشر والسلوك المنحرف، وحقد على كل من يُقبل على الحياة ليرتكب الموبقات(29). وكذلك كان يكره الإطراء والمدح لنفسه، لِمَا يتصف به من التواضع أولاً ومن كراهية النفاق والمراءاة والألقاب الفضفاضة ثانياً؛ لهذا كان يرى أنه لا يستحق كنيته واسمه؛ فيقول(30):

دُعِيْتُ أبا العلاء وذاك مَيْن   ولكن الصحيح أبو النزول

وهذه الجوانب مجتمعة تعيننا على فهم موضوع الاغتراب في حياته وأدبه وصفاته؛ فهو عاشق للانعتاق من التزلف، ما جعله يحس بالاغتراب حين ارتبط اسمه بحياة بائسة عاشها حتى وفاته، ما فرض عليه استشعار الغربة الذاتية الدائمة؛ فهو ما جاء إلى هذه الدنيا إلا ليشقى ويُعذَّب ... وكأن مجيئه إلى الحياة جناية شنعاء ارتكبها أبوه بحقه؛ وهذا قمة الاغتراب؛ إذ قال:(31)

هذا جَناه أَبِي عليَّ   وما جَنَيْتُ على أَحَدْ

فمفهوم الاغتراب ــ عنده ــ يستجيب لفطرته ورؤيته ومقاربته للحياة؛ وهو

---

(28) انظر المعجم الفلسفي 274/1.

(29) انظر ــ مثلاً ــ لزوم ما لا يلزم 558/1 ــ 560 و 575 و 580 والمهرجان الألفي لأبي العلاء 202 ــ 212.

(30) لزوم ما لايلزم 348/2.

(31) انظر وفيات الأعيان 115/1.

مفهوم يستمد من فلسفته المرتبطة بالقضايا الدينية والاجتماعية، والفكرية والسياسية ما جعله يفرض على نفسه قيوداً اغترابية غريبة لم يفرضها أحد على نفسه من قبل؛ أياً كانت عذاباتها وهمومها... لكن هذا المفهوم الاغترابي لم يكن سلبياً، وضعيفاً عاجزاً على الرغم من الإحباطات الاجتماعية التي واجهها ومن العزلة الشديدة التي قيّد بها جسده، بل كان مفهومه الاغترابي متمرداً ثائراً... فحين رضي بالقيد الشخصي للجسد كان عقله حراً طليقاً، إذ أراد للمجتمع أن يتحرر من القيود والمظاهر المنحرفة والعادات المتخلفة؛ والعقول المتحجّرة... فاغترابه مهما تضمخ بمسحة الرومانسية الحزينة ظل ممثلاً لاغتراب المثقف عن واقعه الذي يعيش بين ظهرانيه لأسباب شتى.

ومن لم يدرك أبعاد حدود اغترابه في حديه؛ الداخلي والخارجي؛ الذاتي والاجتماعي، الثقافي والسياسي، العقيدي والعقلي فإنه سيعجز عن فهم فلسفته، ولن يكون قادراً على تحليل شخصيته وحياته وأدبه وفكره، أي إن اغترابه يتولَّد من التوازن بين الذاتية والموضوعية المتمثلة بمجتمعه وما يجري في عالمه، ومن ثم كان يحقق الانسجام بينه وبين هذا المجتمع. لذا كان يبدأ بذم نفسه قبل أن يذم الآخرين؛ ويرى أن الظلم مشترك بين الناس منذ القديم: (32)

ولم يأت ــ في الدنيا القديمة ــ منصف　　　ولا هو آت، بل تظالمنا جَزْمُ

ومن يتابع حياة المعري وأدبه يدرك أن أبا العلاء كان شخصية مركبة المزاج والصفات فهو زاهد متواضع، ولكنه يعتز أيما اعتزاز بنفسه؛ وهو يعيش في صراع داخلي بسبب أمور كثيرة ذاتية واجتماعية... ولكنه لم يكن مريضاً... وهو مؤمن، ولكن العقل سيد الإيمان...

ولهذا فمفهوم الاغتراب لديه ينطلق من الذات الجسدية المعذبة المحرومة، ومن

---

(32) لزوم ما لا يلزم ــ 2 /380.

الذات الفكرية المقهورة بالعادات البالية، والأساليب الاجتماعية والفكرية التي خضعت للهوى والعصبية والغريزة وهي أساليب تناقض طبعه وخلقه. ومن ثم فاغترابه ينبثق من جناح الروح الإيمانية المتكسرة أمام جهالة العامة قبل جهالة الخاصة؛ ولا سيما رجال الدين...فهو يرى الأرض شقاء وجحيماً ما جعله ينتقل إلى عالم الآخرة ليغير ما رآه في الحياة الدنيا كما لمسناه في (رسالة الغفران) مثلاً.

وهذا يعني أن مفهوم الاغتراب عند المعري إنما هو مفهوم نفسي اجتماعي ثقافي تتداخل فيه السياسة بالعقيدة والتاريخ... وهو مفهوم تأصل في الذات والحياة والأدب غير أنه كان مفهوماً واعياً لم يؤدّ إلى الاستلاب العقلي لديه؛ وإن سقط في العزلة الاجتماعية والجسدية والروح الساخرة التي ملأت نفسه وعقله لثقل المعاناة الاجتماعية والثقافية التي لقيها. فالسخرية إحدى أهم مقومات المفارقة النفسية لما يستشعره في ذاته نحو مجتمعه... وهي مفارقة تتلف أعصابه... ولعلها هي التي دفعته إلى مفهوم الاغتراب الذي يتعالق بمفهوم السخرية كما تجلى في لزومياته؛ أكثر من أشعاره الأخرى، وهي كذلك في نثره ولاسيما (رسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج).

فالسخرية سلاح استعمله المعري لمجابهة الواقع الفاسد؛ من أجل السمو إلى درجة الحياة الكريمة. ومن ذلك قوله:(33)

يَحْسُن مرأىً لبني آدم وكلهم في الذوق لا يَعْذُبُ
ما فيهم بَرٌّ ولا ناسك إلا، إلى نفع له، يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناسَ ولا تكذب

---

(33) لزوم ما لا يلزم 1/ 107 وانظر فيه 106 و 108 و 110 و 114 و 144 و 165.

. فمفهومه لم ينته إلى التقوقع على الذات العاقلة وإنما كان يسعى إلى تحقيق بنية موضوعية اجتماعية صحيحة بعيدة عن الانفصام والتخلف والانحراف والشذوذ و... وأقرب إلى الصحة والاستقامة والعدالة وإعطاء كل ذي حق حقه... ما يثبت أن اغتراب المعري على خصوصيته يحمل طابع الوعي العقلي بالانفتاح على المجتمع روحاً وإن انغلق عليه جسداً... ولعل هذا كله جعله سابقاً لكثير من الشعراء العرب المعاصرين الذين عانوا توتراً عصبياً من أوضاع المجتمع المرعبة؛ ثم تشتتوا وراء اغترابهم، فمنهم من انكفأ على ذاته، راجياً السلامة، ومنهم من غادر الأوطان وأطلق العنان لنفسه بالنقد، ومنهم من ظل فيها يكابد اغتراباً مركباً من الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي؛ ويعمل جاهداً على تغييره، وقد أصبح الحزن رفيقهم الدائم كما كان عليه المعري...

2 ــ عوامل الاغتراب ومظاهره:

ما من باحث وقف عند صفات أبي العلاء وحياته وأدبه إلا ركز على جانب الحياة الحزينة عنده؛ وطفق يعلل حالة اليأس والتشاؤم والحيرة تجاه ما كان يعاني منه على الصعيد الاجتماعي والفكري والسياسي... وما نتج عن ذلك من فلسفة تأرجحت بين الشك واليقين في عقيدته؛ وبين رفض المجتمع وقبوله، وبين ما عانى منه من اضطراب وقلق ما يعني أن الانكفاء على الذات إنما هو اتقاء للوجود الخارجي غير السوي... أي إنه عزف عن مخالطة الناس ورؤيتهم حتى يظفر بمعرفة أحوالهم وأخبارهم وأخبار الأمم والأقوام الذين سبقوهم؛ فهو ينقطع عنهم من جهة ويتصل بهم من جهة أخرى...

لهذا فإن حياته غدت معقدة، غريبة كغرابة نفسه، ولا سيما حين ارتد إلى غربة الاعتزال الطوعي الذي فرضه على نفسه، وجعل العقل الحَكَم الأول والأخير على الحياة والأشياء والعقائد و... فكثر أعداؤه وتكالبوا عليه.

ولعل ذلك كله جعله يعيش حالة اغترابية نفسية واجتماعية وفكرية و... ما يجعلنا نقف عند بيان ماهيتها في إطار مسيرة حياته مركزين على عماه، ورحلاته، ثم اعتزاله لمجتمعه وللأطعمة...

أ ــ الاغتراب الذاتي:

1 ــ العمى

لعل مسيرة حياة المعري تجسد روح اغترابه بكل دلالته وأبعاده... فقد أصيب بالجدري وهو في الثالثة من عمره سنة (367هـ)؛ فأحس بألم داخلي شديد؛ زاد منه فقده لبصره في السنة الرابعة... فصار مدعاة لشفقة بعض أصدقاء والده. لهذا ردَّ عليه والده قائلاً: "لا ضرورة لإشفاقك يا صديقي، فإني أحس في صغيري العزم والإصرار، وألمس فيه التحفز وحب الوثوب... وما كان الله ليخزيني فيه"(34).

ولا مراء في أن حياة هذا الطفل الأعمى والمريض؛ كانت مدعاة لاغتراب ذي توتر عالٍ؛ ولا سيما حين كان يترك وحيداً في زاوية البيت وقد انشغل عنه النسوة بأعمالهن فكان يستمع إلى أحاديثهن ويختزن ما يقدر عليه دون أن يقوى على فعل ما ينقذه من حكاياتهم... وما إن عوفي حتى وجدته يقبل على انتهاب المعارف والعلوم والفقه والفنون واللغة والنحو، ولا سيما أنه سليل أسرة علم وأدب ورياسة... فأخذ علمه من أخيه وأبيه وجده وأفراد أسرته أعماماً وأخوالاً في المعرة وحلب(35)؛ علماً أنه تمتع بذكاء عجيب وفطنة عظيمة منذ وقت مبكر؛ إذ قال الشعر وعمره(11) سنة،

---

(34) أبو العلاء المعري ... حكيم المعرة ــ د. يوسف محمود ــ مجلة شبكة جامعة عجمان ــ مج 14 ــ عدد1 ــ 2009م ــ ص70 وانظر تجديد ذكرى أبي العلاء 119 و 161.

(35) انظر بغية الوعاة 126 و451 وتعريف القدماء 191.

وتميز بحافظة شديدة، وفراسة صادقة(36)، ماجعل اغترابه الحياتي اغتراباً إيجابياً، ما يعني أنه صَدَّق نبوءة أبيه فيه، كما صَدَّق نبوءة المتنبي في قوله: (37).

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي　　وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ

وكان المعري يقول: "كأن المتنبي نظر إليّ بعين الغيب"(38)؛ وهو يقصد البيت السابق.

فغربة العمى ما كانت لتجعله منقطعاً عن العالم الخارجي، وكان قد فتح عينيه عليه في سنواته الأولى دون أن يدرك شيئاً كثيراً عنه... لكن عماه المبكر كان السبب وراء نشوب اغتراب نفسي عاطفي اضطرابي ومثير أدى به إلى الحيرة، والقلق، إذ كان يقول: "العمى عورة والواجب استتاره في أحواله"(39). ومن ثم فإن العمى أرسى في نفسه اغتراباً اختلط فيه ما يحبه بما يرفضه، وطفق يطوّر معارفه ليدرك ما لا يدركه المبصرون. كان يحمد الله على عماه فيقول: ((أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر))(40). فهو لم يخف من العمى بل أقرَّ به بمثل ما أَقَرَّ بأن الناس قد عميت بصيرتهم فقال:(41)

إذا مَرَّ أعمى، فارحموه وأيقنوا،　　وإن لَم تكفُّوا، أنَّ كلكم أعمى

---

(36) انظر الإنصاف والتحري 20 ــ 24 وتعريف القدماء بأبي العلاء 33 و 191 و 224 و 264 ــ دار الكتب المصرية ــ القاهرة ــ 1944م. ونقد الشعر في آثار أبي العلاء 5 ــ 10.

(37) ديوان المتنبي 367/4.

(38) زوبعة الدهور 31.

(39) تعريف القدماء بأبي العلاء 192 و312.

(40) معجم الأدباء 3/ 129 ــ 130.

(41) لزوم ما لا يلزم 2/ 419 وانظر فيه 2/ 416.

ولعَلَّ عماه وسوء سلوك الناس معه كانا الأصل في عزلته واغترابه فهو يشعر بأن الطبيعة قد سجنته حين فقد نظره، ومن ثم فرض على نفسه سجناً آخر بالاعتزال ساخطاً على الناس ولذا يقول:(42)

خَيرٌ، لَعمْري، وأهدى من إمامهم،   عُكَّازُ أعمى هَدَتْهُ؛ إذ غدا، السُّبُلا
إنَّ المسنَّ، وقد لاقى أذىً وشذاً،   يَوَدُّ، لو رُدَّ غَضَّ العيشِ مقتبلا

وإذا كان العمى قد تجذر حقيقة كبرى في حياته ونمط تفكيره، فصاغ غير ما رؤية له، فإنه رأى فيه عنصراً إيجابياً يقوّض من خلاله عادات وتقاليد؛ ويهدم أفكاراً ورؤى ليثبت أنه كان يتفوق على أي واحد منهم، متحدياً إياهم، أولهم وآخرهم فيقول:(43)

وإني وإن كنت الأخيرَ زمانُه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
وأغدو ولو أن الصباح صوارم   وأَسري ولو أن الظلام جحافل

فهو لا يثنيه شيء عن طلب ما يحاوله، فهو ثابت الجنان لا يخشى مكائد عدوٍّ.. ومن ثم حاول أن يعنى بالصور البصرية، ويبالغ فيها، وما يفعل هذا إلا تأكيد لإثبات تفوقه على المبصرين.. ثم نجده يشدد على الصورة البصرية اللونية ليبرز خبرته فيها من جهة، وليؤكد أنه يسري وسط ظلام يشبهه بالجيوش العظيمة. فالصورة الشعرية تعبر عن الرغبات المكبوتة التي تعتلج في نفسه... حين يصر على معرفة طريقه في ليل بهيم... وما ذلك إلا تحدٍّ لعاهة العمى... ولكنه تحدّ ليس على وجه التعويض، وإنما على وجه إثبات ما يملكه من قدرات تزيل من أمامه كل المصاعب.

---

(42) لزوم ما لا يلزم 2/ 290 وانظر مع أبي العلاء في سجنه 32 ـــ 33.

(43) شروح سقط الزند 2/ 525.

وكذلك كان يستر وجهه المجدور عن الناس، ويستشعر الأسى من عينيه المختلفتين، فإحداهما غائرة والأخرى بارزة؛... أما جسمه فقصير منحنٍ، نحيل، نتأ عظمه،... لذلك كان يرى في الاعتزال شفاء له من سخرية الناس فقال:(44)

بُعْدي عن الناس بُرء من سقامهم   وقربهم، للحِجَى والدين، أدواء

فالمعري يستشعر قوة خاصة، ما جعله يتجاوز عقدة العمى التي سقط فيها غير ما شاعر أصيب بفقد البصر، اعتماداً على العقل الذي جعله دليلاً وهادياً، وسبيلاً للتفكُّر؛ وإن أوصله إلى الحيرة والشك في بعض الأحيان كما يعترف بقوله:(45)

سألت عقلي فلم يخبر وقلت له: سلِ الرجال، فما أفتوا ولا عرفوا

قالوا، فمالوا، فلما أن حدوتهم   إلى القياس، أبانوا العجز واعترفوا

... ولذلك فإن عماه لم يمنعه من البحث عن المعرفة والرحلة في طلبها؛ وإن شكلت ــ هي الأخرى ــ نسقاً آخر من الاغتراب الذاتي.

2 ــ الرحلات:

يتمثل الاغتراب الذاتي بوضوح في رحلاته خارج المعرة، ومنها رحلته المبكرة للمرة الأولى عن معرة النعمان، وانتقاله منها إلى حلب ليزداد علماً وفقهاً على يد علمائها وشيوخها؛ فقرأ القرآن على جماعة منهم بمثل ما سمع الحديث، وإن كانت جدته أم سلمة بنت الحسن بن إسحق معلمته الأولى في الحديث. فالغربة هنا غدت اغتراباً ذاتياً عن المكان والزمان والمجتمع أياً كانت العلاقات التي تربطه بأخواله بني

---

(44) انظر لزوم ما لا يلزم 48/1 والإنصاف والتحري 19، وتعريف القدماء بأبي العلاء 122-131.

(45) لزوم ما لايلزم 153/2.

سبيكة الذين كانوا يسكنون حلب ولا سيما حين أخذت رحلة النضج العقلي لدى الفتى الشغوف تكتمل. ولذا رغب في الحصول على مزيد من المعارف فكانت غربته الذاتية الأخرى ممثلة بالرحلة الثانية إلى بغداد سنة (399هـ).. وفيها عرف كتب دار العلم، والتقى رجالات بغداد وشيوخها وبخاصة الشريفين (المرتضى والرضي) وعلي بن عيسى الربعي... وما اطلع على كتاب في خزائن بغداد إلا حفظه... ولعل كثرة ما جناه من علوم وآداب وفقه ولغة ونحو و... كان وراء الخلاف الذي نشب بينه وبين عدد من علمائها، ولا سيما الشريف الرضي؛ إذ كانت الحادثة المشهورة بينهما أصلاً آخر لاغترابه،(46) وشرع يحس بأنه يعاني اغتراباً مركباً في الزمان والمكان والمجتمع، ومن ثم اغتراباً نفسياً ثقافياً وقد زاد اغترابه النفسي شدة في الكآبة والحسرة ما تناهى إليه سنة (400هـ) عن مرض والدته، فحزم أمره على العودة إلى معرة النُّعمان؛ ولكنه وصل إليها بعد أن وافتها المنية، دون أن يراها، فثقل عليه ذلك فازدادت غربته؛ وظهر ذلك في مرثيته لها ومنها (47)

سمعْتُ نعيَّها صَمّي صَمَام   وإن قال العواذل لا هَمَامِ
وأمَّتني إلى الأجداث أُمٌّ   يَعِزُّ عليَّ أن سارت أمامي
وأُكبر أن يُرَثِّيها لساني   بلفظ سالك طُرُق الطعام
كأنَّ نواجذي رُديَتْ بصخر   ولم يمرر بِهنَّ سوى كلامي

فالصراع النفسي تجاه فراق والدته أحدث في ذاته غربة موحشة زادت غربته

---

(46) انظر معجم الأدباء 123/3 ــ 124 وتجديد ذكرى أبي العلاء 161 ونثر أبي العلاء 43.

(47) شروح سقط الزند 1413/3 ــ 1418 وانظر إبداع ونقد 127 ــ 129.

المكانية وسنّه لم تتجاوز السابعة والثلاثين.

وفي هذا المعرض وذاك قال:(48)

أثارني عنكم أمران: والدة لم ألقها وثراءٌ عاد مسفوتا

فالمعري لزم (معرَّة النعمان) لا يبرحها، كما لا يبرح حرف (الواو) فعل (وعد) إذ قال(49):

إذا غدوت عن الأوطان مرتحلاً فضاهِ في البين حذف الواو من يَعِدِ
كانت، فبانت، وما حنَّت إلى وطن وعاد غادٍ إلى وكر، ولم تَعُدِ

فالمعري مرتبط بالمعرة ارتباطه بالوطن، فإذا ابتعد عنها استشعر الاغتراب والغربة؛ لذا تراه يعود إليها والهاً، وفق ما يراه القارئ في ديوانه (سقط الزند).

ولعل المتأمل في الصورة الشعرية السابقة يدرك أن غرابة اغتراب المعري في مفهومه للبعد عن الوطن لا يقل غرابه عن ولعه بالنحو واللغة؛ ومضاهاة افتراقه للمعرة بمضاهاة فراق حرف (الواو) لفعل (وعد) حين يصاب بالإعلال.... وإذا كان الإعلال يطول في الفعل فإن غيابه عن المعرة مؤقت...

فحينما نعتقد بأنه لم يرحل خارج المعرة إلا مرتين، وفق ما ذكرناه، فإننا نميل إلى أنه لا صحة لما قيل عن رحلته إلى بقية الأمصار كأنطاكية، واللاذقية وطرابلس

---

(48) شروح سقط الزند 1594/4، وفيه أسارني، وجاء في الحاشية (أثارني) ولعلها الأوجه، فأثبتها، وانظر كتاب الإنصاف والتحري 13 ــ 17 وتعريف القدماء 17 و38 و542 والجامع 209/1 و250 و265 ــ 268 و272 ــ 276 والمسفوت: قليل البركة.

(49) لزوم ما لا يلزم 1:378، ضاه: ماثِلْ، شابه.

وصنعاء وغيرها(50)، وكل شعر ذكر له في هذا الشأن إما أنه منحول، وإما أنه متخيل(51).

ومن هنا يمكننا أن نستكمل الاغتراب الذاتي بما شاع عنه حول مفهوم اعتزال الناس وغيرهم.

3 ـ الاعتزال:

أ ـ اعتزال المجتمع:

يبقى اغتراب الاعتزال أبعد أثراً في ذاته سلوكاً وفكراً وأدباً، فقد فرض على نفسه عزلة صارمة حين عكف في بيته ولم يفارقه إلا للضرورة الملحة؛ مثل لقاء حاكم حلب صالح بن مرداس ليشفع لأهل المعرة... وكان له ذلك، وعبر عنه في قوله: (52)

تغيبـــت فـــي منزلـــي برهـــةً ســـتير العيـــوب فقيـــد الجَـــسَدْ

فلمـــا مـــضى العمـــر إلا الأقـــل وحُـــمَّ لروحـــي فـــراق الجـــسد

بعثـــت شـــفيعاً إلـــى صـــالح وذاك مـــن القـــوم رأيٌ فـــسد

فيـــسمع منـــي ســـجع الحمـــام وأســـمع منـــه زئيـــر الأســـد

فـــلا يعجبنـــي هـــذا النفـــاق فكـــم نفقـــت محنـــةً مـــا كـــسد

---

(50) انظر لزوم ما لا يلزم 552/2 والإنصاف والتحري 13- 15 ونثر أبي العلاء المعري 39 ـ 40.

(51) انظر لزوم ما لا يلزم 546/1.

(52) لزوم ما لا يلزم 1/ 404 وانظر فيه 492 ـ 393 وفي رسالة الهناء 11 ـ13 (الحاشية1).

كانت عزلته المكانية/ الزمانية والاجتماعية اغترابا نفسيا يحاول أن يأمن فيها المعري على عقله وسلوكه الصادق، في قوم كثر فيهم النفاق والكذب والغش و...، فاغترابه نابع من انفصاله عن عالمه الاجتماعي بما شاع فيه من عادات وأساليب ملتوية؛ تتحكم بحياة الناس وتؤثر في نفوسهم... فهو لم يستسلم لما يسود بين ظهرانيه من مبادئ وتصرفات غير محمودة، وإنما تصدى لها، مفنداً تبعاتها الضارة. ولهذا حرص على اعتزال أي إنسان منحرف في سلوكه ودعا إليه كل عاقل، إذ قال: (53)

إذا انفرد الفتى أمنت عليه   دنايا ليس يؤمنها الخلاط

فلا كَذِبٌ يُقَال ولا نَمِيم   ولا غلط يُخَاف ولا غلاط

وكم نهض امرؤ من بين قوم   وفي هاديه من خِزْيٍ عِلاط

فأبو العلاء عاش ضريراً، وأقام في المعرة متزهداً في حياته، معتزلاً الناس بعد عودته من بغداد، وسمّى نفسه رهين المحبسين (العمى والبيت) ــ على حين كان رهين المحابس الثلاثة، ــ عازفاً عن بيع نفسه للولاة والأمراء وأصحاب المال، على الرغم من أنه لم يكن صاحب ثروة(54)...

ولذا كانت عزلته للعامة والخاصة نتيجة لأسباب كثيرة ذاتية واجتماعية وثقافية معرفية؛ ما يعني أنه عاش حالة اغترابية لأنه كان يشعر بعدم قدرته على مجاراة ما يجري في مجتمعه. لهذا تناوشه الناس كما تتناوش السباع الفريسة؛ فقال معبراً عن

---

(53) لزوم ما لا يلزم 100/2.

(54) معجم الأدباء 124/3 وإبداع ونقد 129 وتعريف القدماء بأبي العلاء 17 و254 ومع أبي العلاء في سجنه 32 ــ 33 و 51 و 101.

ذلك بألم وحرقة:(55)

يقول لك: انعم مصبحاً، متودِّدٌ   إليك وخير منه أغلبُ أصبحُ
رجوت بقرب من خليلك مرحباً   وبُعدك منه، في الحقائق، أربح
إذا أنت لم تهرب من الإنس فاعترف   بطُلْس تعاوى أو ثعالب تضبح
ومارس بحسن الصبر بلواك إن هم   أتوا بقبيح فالذي جئت أقبح

وفي هذا المقام لا بد للمرء من أن يشير إلى أن عزوفه عن الزواج شكّل لديه اغتراباً نفسياً واجتماعياً وفكريا نوعياً ومتعاظماً. فالمرأة ـــ عنده ـــ لم تعد تعني تلك المرأة المطلوبة التي يسعى الرجال إلى استرضائها للتمتع، أو التغزل بجمالها... فالمرأة من هذا النمط غير موجودة في حياته وأدبه؛ وليس للجمال الحسي أي منزلة عنده، بوصف المرأة مادة للغواية؛ إلا من رحمها ربها وأكسبها صفات معنوية بديعة من الصدق والعفة. لذا كرر الحديث عن المرأة وبوصفها مادة للهو واللعب(56)؛ أو قينة فاسقة تجر الويلات على المعرة(57)؛ أو ورهاء حمقاء(58)، أو غير ذلك... فهو ينبثق في رؤيته للمرأة من موقف مغاير متنافر للطبيعة الجوهرية الإنسانية التي لا تكتمل إلا بوجود المرأة والرجل معاً... ولعل هذا الموقف الاغترابي ينطلق من فلسفته المتشائمة، ونظرته القاتمة للمرأة، اللهم إذا استثنينا موقفه من أمه. ولعل حياته الأولى

---

(55) انظر لزوم ما لا يلزم 282/1 وراجع فيه قصائد أخرى 273 و428 و438 والأغلب والأصبح من أسماء الأسد. والطلس: الذئاب. تضبح: تصوّت.

(56) انظر لزوم ما لا يلزم 246/1 و116، و298 و398 و495 و580 و455/2.

(57) انظر لزوم ما لا يلزم 492/1.

(58) انظر لزوم ما لا يلزم 258/1.

التي أصيب فيها بالجدري فلزم البيت منزوياً وهو يستمع إلى أحاديث النسوة بكل صنوفها، دون أن يأبهن للطفل المريض الذي كان أصل اغترابه موقفه من المرأة؛ إذ كان يختزن في ذاكرته تلك الأحاديث... لهذا كله قال(59):

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحُرَم الوليدُ

فإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت، وإن رزقت حِجىً، بليد

ألا إن النساء حبال غيّ، بهن يُضيَّعُ الشرف التليد

ومن ثم فلا عجب بعد هذا كله أن يقلع عن الزواج فيقول(60):

تواصل حَبْلُ النَّسْل ما بين آدم وبيني، ولم يُوْصَل بلاميَ باءُ

ولا عجب بعد ذلك كله أن ينصح الرجال بالابتعاد عن النساء، والزواج بهن فقال(61):

أشددْ يديك بما أقو ل فقول بعض الناس درُّ

لا تدنون من النسا ء فإن غِبَّ الأري مُرُّ

والباء مثل الباءِ يخـ ـفض للدناءَة أو تجرُّ

فالمرأة تجرُّ الرجل إلى ما لا يريد، وتنزل مكانته كما يفعل حرف الجر بالاسم.

---

(59) لزوم ما لا يلزم 337/1 وانظر فيه 559 وفي 413/2.

(60) لزوم ما لا يلزم 42/1، لام: شخصي. الباء: الزواج، وانظر فيه 271 وفي نثر أبي العلاء 45.

(61) لزوم ما لا يلزم 475/1 وانظر فيه 63 و526 وانظر 381/2.

وإذا كان لا بد من الزواج للفتى فخير النساء من لا تنجب فيقول(62):

إذا شئت، يوماً، وَصْلةً بقرينة   فخير نساء العالمين عقيمها

وهذا الموقف الاغترابي نابع من صميم حياته المرة ومن مشكاة ذات ملتوية أنتجت هذه الصورة الاغترابية الملتصقة بفلسفته التشاؤمية التي ترسي في نفسه الحالة العدمية التي عانقت فلسفة الزهد والتنسك لديه(63).

ونرى أن موقفه من المرأة موقف غريب عجيب يؤسس لاغتراب مؤرقٍ مضطرب لا مثيل له وكأني به يرى في هذا المقام أن الموت أفضل من الحياة إذا كانت لا تجر إلا الويلات للناس(64). وهذا ما يفسر مفهومه لعدم الزواج وعدم الإنجاب؛ وهو قمة الاغتراب أي لما كانت رؤيته للمرأة رؤية مفارقة للجوهر الصحيح فإنه رأى الدنيا بكل سوءاتها مشابهة للمرأة(65)؛ ما جعله يطلب حجب المرأة عن العمل والناس إلا لضرورة ملحة فقال(66):

علّموهُنَّ الغَزْلَ والنَّسْجَ والرَّدْ   ن وخلُّوا كتابة وقِراءَهْ
فصلاة الفتاة بالحمد والإخ   لاصِ تجزي عن يونس وبراءهْ
تهتك السِّتْر بالجلوس، أمام السِّ   تْرِ إن غَنَّت القيان وراءهْ

---

(62) لزوم ما لا يلزم 391/2 وانظر فيه 396.

(63) انظر لزوم ما لا يلزم 427/2 و431 و435 و445.

(64) انظر مع أبي العلاء في سجنه 194.

(65) انظر لزوم ما لا يلزم 56/1.

(66) لزوم ما لا يلزم 63/1 وانظر فيه 93 ــ 235 ــ 236 و471/2.

فموقفه الاغترابي من المرأة ينطلق من مشكاة عقله الشاك القلق، فهو لا يثق بحواء، وإذا كان لا بد من الزواج فعلى المرء أن يعزل الزوجة في بيتها، لتكون للحمل والإرضاع والعناية بالأطفال فيقول(67):

العيش ماضٍ، فأكرم والديك به، والأُمُّ أولى بإكرام وإحسان
وحسبها الحمل والإرضاع تُدمنُه أَمران بالفضل نالا كلَّ إنسان

ولذلك ندرك أن الوحدة والانعزال والعزوف عن الزواج يمثل لديه لذَّة ما بعدها لذَّة؛ ما جعله يقول:(68)

غَفَرت زماناً في انتكاس مآثم وعند مليك الناس يُلْتَمس الغَفْرُ
وفي وحدة الإنسان أصناف لذة وكل صنوف الوحش يجمعها الفقر

ولم يقتصر الأمر على ما تقدم بل فرض على نفسه عزلة من نوع آخر تتجسد في الأطعمة والألبسة.

ب ــ اعتزال الأطعمة والألبسة الوثيرة:

اتخذ أبو العلاء طقوساً شتى في حياته وعاداته؛ طقوساً غريبة في مأكله ومشربه ولباسه، فضلاً عن أنه كان لا يملك إلا قدراً قليلاً من المال... فطبيعته النفسيَّة ومذهبه في الحياة وضيق ذات اليد، كل ذلك جعله مغترباً اغتراباً عظيماً عن الجوهر الحقيقي للطبيعة الصحيحة... فأبو العلاء رزق (30) ديناراً في السنة نصفها لخَدَمِه، ونصفها

---

(67) لزوم ما لا يلزم 554/2.

(68) لزوم ما لا يلزم 415 ــ الغَفْر: الستر. والانتكاس: معاودة المرض.

لمؤونته، ما فرض عليه الزهد، فلبس خشن الثياب من القطن، واكتفى بالحصير من البُرْدي في الصيف، وقطعة من اللباد في الشتاء. وطعامه منذ صار عمره ثلاثين سنة النبات والعدس المطبوخ، والتين في الشتاء حُلْوه وهو القائل: (69).

يقنعني بُلْسنٌ يمارسُ لي   فإن أتتني حلاوة فَبلَسْ

لذلك جاء في رسالته إلى داعي الدعاة في مصر: "فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال، وبلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً، فرزقه صوم الدهر، فلم يفطر في السنة ولا في الشهر إلا في العيدين، وظن أن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية، فاقتصر على فول وبُلْسُن، وما لا يعذب على الألسن"(70)، وترك أكل اللحم، وما ينتجه الحيوان... حتى قيل: هجر اللحم خمساً وأربعين سنة إلى أن مات اجتهاداً في التعبد،(71) وكان يعيش في دار لا تختلف عن دور فقراء الناس، ولكنها تفي باستتاره عنهم؛ وتجنب إيذائهم... علماً أنه كان بإمكانه أن يأخذ من الولاة والأمراء ما يشاء لينعم في الحياة، وقد عرض عليه (المستنصر) خليفة مصر خراج بيت المال في المعرة، فاعتذر عنه وقال:(72)

كأنما غانةَ لي من غِنىً   فَعدّ عن مَعْدنِ أسوانِ

فالاغتراب عند المعري يغاير كل ما هو مألوف لدى العامة والخاصة؛ ولعل هذه المفارقة تبلغ حد التنافر في فلسفته الشعرية التي حدثنا بها في امتناعه عن بعض

---

(69) لزوم ما لا يلزم 70/2.

(70) انظر الإنصاف والتحري 7 ومعجم الأدباء 125/3 ــ 126 وتعريف القدماء 17 و 31 و 125 و 137 و 190 و 274 و 312.

(71) انظر الإنصاف والتحري 7 ومعجم الأدباء 125/3 ونقد الشعر في آثار أبي العلاء 11 ــ 12.

(72) تعريف القدماء بأبي العلاء 99 ــ وانظر لزوم ما لا يلزم 567/2 و 585 و 619.

الأطعمة، إذ فرضت عليه رؤيته الغريبة تحريم أكل لحوم الحيوان، بل إن ما تنتجه تلك الحيوانات إنما هو حق أبنائها وليس للإنسان حق فيه، فيقول:(73)

غدوت مريض العقل والدين فالقني   لتسمع أنباء الأمور الصحائح

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً   ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

وأبيض أماتٍ أرادت صريحه   لأطفالها دون الغواني الصرائح

ولا تفجعن الطير وهي غوافل   بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضَرَب النحل الذي بكرت له   كواسب من أزهار نبتٍ فوائح

فما أحرزته كي يكون لغيرها   ولا جمعته للندى والمنائح

مسحت يدي من كل هذا فليتني   أَبَهْتُ لشأني قبل شيب المسائح

فهو يستجيب لفطرته ورؤيته في مقاربة حياتية بريئة من كل إيذاء للخلق... فالإمتاع الفني لا يستند فقط إلى فلسفة الاغتراب التي تستفز العقل، وإنما يستمد مقارباته الفلسفية والجمالية ــ أيضاً ــ من المراوغة في التصوير المشرق لكراهية سلوك البشر نحو تلك المخلوقات وما تقوم عليه حياتها... فما يسعد البشر يحزنها ويترك في نفسها الأسى؛ والشجن مما أحس به المعري. فهو يصدر عن دقة حسّ؛ ورؤية فلسفية لاستشعار ضعف بعض الحيوانات، ما أدى إلى مخالفة ظاهرة لما ألفه البشر من إقبال على أكل لحوم الحيوان على حين كان قليل الحيلة في الحصول

---

(73) لزوم ما لا يلزم 1/ 295 ــ 296.

عليها... فاغترابه في ضوء هذا الواقع الذي يسيطر فيه الإنسان على كل شيء يكشف عن مدى المكابدة التي يعانيها لقلة ذات اليد عنده... ولعل هذا كله يمثل قمة الاغتراب النفسي لديه، وانقطاع تصوره عن تصور البشر، وقد ظهر صدى ذلك كله في شعره.

4 ـ صدى الاغتراب الذاتي:

يعد شعر المعري صدى لحالة اغترابية نفسية وفكرية أبعدته عن المجتمع، وقوَّت لديه الميل إلى الانعزال أو ما يسمى الانقطاع عن المكان والزمان إذ فرض على نفسه الحبس الطوعي في البيت بعد رجوعه من بغداد، فأصبح رهين المحبسين العمى والمنزل، أي إنه استشعر الاغتراب عن الوطن كله حتى مماته، ومن ثمَّ فالغربة المكانية عند المعري استحالت إلى حالة قلق اغترابي للعواطف المكبوتة... ولا شيء أدل عليه من قصيدته:(74)

علّلاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفان

إن تناسيتما وداد أناس فاجعلاني من بعض من تذكران

فمطلع القصيدة يوضح الحالة الاغترابية التي تدل على تشتت الأفكار والرؤى... بما تدل عليه من مخادعة النفس بالأماني المسلية، والأحاديث المُلْهية؛ حتى ماتت الأماني والأحلام بضروب هذه الأحاديث، بيد أن ظلام الليل ما زال قائماً... ثم يعطف على هذه المعاني النفسية الاغترابية معاني تمتزج في الاغتراب الاجتماعي الذي يدل على المفارقة بين الأصحاب والطلب إليهم ألا ينسى بعضهم بعضاً... ولو تابع أحدنا هذه القصيدة لوجد أن أغلبها خالص لمعاني الاغتراب بكل اتجاهاته وأبعاده؛ وهو اغتراب يصل إلى ذروته النفسية حين يستشعر الضياع والغرق وكذلك هي نجوم

---

(74) شروح سقط الزند 425/1 وما بعدها؛ وحومة الدجى: اجتماع الظلام.

السماء غائبة غير ظاهرة... فحال أبي العلاء والبشر كحال هذه النجوم يعانون من الحيرة والظلام والضلال؛ فيتابع قائلاً:

نحن غَرْقَى فكيف ينقذنا نجـــــــــ ـــــمان في حَوْمة الـــدُّجَى غرقـــان؟

ولهذا كله فإنه ينتهي إلى اغتراب ذاتي لا نظير له حين طفق يتمنى لو أنـــه لـــم يأت إلى هذه الدنيا؛ إذ قال في مقطعة له تبلغ ثمانية أبيات: (75)

سكنت إلى الــدنيا فلمـــا عرفتهـــا تمنَّيت أنـــي لـــست فيهـــا بـــساكن

وما فتئت ترمي الفتى عن قُـــسيِّها بكل الرزايا مـــن جميـــع الأمـــاكن

وما ســـمحت للزائـــرات بأمنهـــا ولا للمواكي في أقاصـــي المـــواكن

فاغترابه الذاتي/ النفسي جعله يستشعر بشاعة الدنيا وقسوتها فهي لا تأتي إلا بالفجائع والمصائب فالصورة الشعرية الاغترابية تقدّم علاقات طريفة مستمدة من التباين الذي يراه في الواقع؛ وهو الذي يجسّد عنصر الإمتاع والدهشة.. ومن ثم فالطاقة الشعرية التعبيرية تثير لديه تواشج الخيال بالواقع، والعاطفة بالفكر لتثير الدهشة فينا. وحين يمعن أحدنا التفكير في النص الآتي يدرك مدى المفارقة التي يختلف فيها المعري عن بقية البشر. فحالته الاغترابية في الحياة الدنيا جعلته ــ أحياناً ــ يفارق الناس في رؤيتهم للموت؛ إذ يرى فيه راحة له من الأدواء والعلل التي يتعرض لها مع بني البشر فيقول من مقطعة في خمسة أبيات:(76)

---

(75) لزوم ما لا يلزم 546/2، والمواكي: الطيور الصافرة، وأحدها. المُكَّاء

(76) لزوم ما لا يلزم 2 / 92.

إذا غدوت ببطن الأرض مضطجعاً   فثَمَّ أفقد أوصابي وأمراضي
تيمموا بترابي علَّ فِعلكمُ   بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وإن جعلت بحكم الله في خزفٍ   يقضي الطهور فإني شاكر راض
جواهر ألّفتها قدرة عَجَبٌ   وزايلتها فصارت مثل أعراض

فالشاعر بما نشأ عليه من طهر وصدق وإخلاص وصحة إيمان يطلب إلى القوم كي يتمموا بترابه بعد موته لأنه طاهر مثله، بعكس ما هم عليه... ومن ثم يحدثنا عن الروح التي تفارق الجسد، وفق الإرادة الإلهية. ولعل ما ينفرد به المعري هو هذا التشخيص للموت بهذا الأسلوب المدهش؛ علماً أنه غير هيّاب من الموت؛ وإن غدا جثة هامدة، ما يشي بأنه توحّد بالموت وبالتراب الذي سيرجع إليه، بوصفه الأصل النظيف الذي جُبل منه. ولهذا راح يروم تشكيل صورة الموت وقد صار جسده لحمتها وسُداها... أما الروح فلم يتعرض لها لأنها خارج الإدراك، وكذا هو الإله الأزلي المستمر في الزمان والمكان... ومما قاله في هذا الشأن مقطعة من خمسة أبيات؛ منها:(77)

وأوصال جسم، للتراب، مآلها   ولم يَدْرِ دارٍ: أين تذهب روحها؟

ثم إن ما يثيرنا في قصيدته الرثائية الشهيرة ذلك الامتاع السردي الذي يروي لنا حقيقة النهاية البشرية التي يؤول إليها الناس، وهو مطمئن إليها على حين يخشى الناس

---

(77) انظر لزوم ما لايلزم 284/1.

منها. وكان قد رثى بها الفقيه الحنفي أبا حمزة، ومنها: [78]

غَيْر مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقادي   نَوْح باكٍ ولا تَرنُّم شادِ

وشبيهٌ صوت النَّعيِّ إذا قيـ   ـس بصوت البشير في كل نادي

أبكَتْ تلكم الحمامة أم غنّـ   ـت على فَرْع غُصنْها الميَّادِ

صاحِ هذي قبورنا تملأ الرَّحْـ   ـب فأين القبور من عهد عادِ

خفِّف الوطء ما أظنُّ أديم الـ   أرض إلا من هذه الأجساد

سِرْ إن اسطعت في الهواء رويداً   لا اختيالاً على رفات العباد

ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً   ضاحك من تزاحم الأضداد

فهذه القصيدة العلائية قصيدة اغترابية من النوع الرفيع؛ وهي تمثل حالة الاغتراب النفسي والفلسفي الذي يختص به أبو العلاء؛ إذ تجسد نمطاً من اعتداء الموت على الحياة، وكأنها قصيدة رثاء البشرية بكاملها بل رثاء للدنيا ذاتها. من هنا تتشح القصيدة باغتراب سوداوي ولكنه اغتراب سام في أفقه المعنوي المفتوح لحب الحياة؛ إنه اغتراب يجسد ثقافة المعرفة التي ترتفع إلى مرتبة المواجهة الفاعلة للزمان، الذي ينكب الناس بالمصائب، والمواجهة المثيرة لمفهوم الفناء.

لهذا خضعت حياته لفلسفة تشاؤمية قاسية في صميم الزهد بحياة منقضية لا محالة... ما يجعلنا نفهم عزوفه عن الزواج والنسل واللباس والطعام بأنه جزء من

---

[78] شروح سقط الزند 971/3 وما بعدها.

موقفه اتجاه الفناء، والبؤس والشقاء، أي هو لا يحتقر الحياة ولكنه يكره أن تصاب بأذى نتيجة العبث الذي يقع فيها. وهذا ما يفسر فلسفة التشاؤم لديه لأن الحياة إلى فناء... ومن هنا يمكن أن نفهم صرخته المدوية في هذه القصيدة حين تابع قائلاً:

تعبٌ كلها الحياة فيما أعجـ   ـب إلا من راغب في ازدياد

إن حزناً في ساعة الفوت أضعا   فُ سرور في ساعة الميلاد

خلق الناس للبقاء فضلَّت   أُمَّةٌ يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعما   لٍ إلى دار شقوة أو رشاد

ضجعة الموت رَقْدة يستريح الـ   ـجسمُ فيها والعيش مثلُ السهاد

فالبشرية عنده مقيدة بأغلال تعيق حركة الحياة وتطورها، وهذا مدار تَعجُبِّه من حب الناس إياها، ولاسيما حين أدرك أن حجم المصيبة الإنسانية بفقدان هذه الحياة أعظم بكثير من لحظة الفرح بوجودها والإقبال عليها... فالاغتراب عند المعري في رؤيته إلى الموت تتمثل في كثرة ما يورثه البشرية من تنغيص مسراتها... بيد أنه ينزع إلى الأبدية في البيت الأخير مما تقدم، ولاسيما حين يشبّه حال الموت بحال النوم، بخلاف قوله **r**: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"(79). فالمعري يحدثنا في مواجهته للموت عن حالة القلق الوجودي الذي تتعرض له البشرية، علماً أن الموت نفسه اغتراب عن المكان أو أشبه به كما يقول في مقطعته البالغة سبعة أبيات، ومنها:(80)

---

(79) انظر شروح سقط الزند 3/ 979.

(80) لزوم ما لا يلزم 88/1.

بقيتُ، وما أدري بما هو غائب، لعل الذي يمضي إلى الله أقرب

تودّ البقاءَ النفسُ من ضيفة الردى، وطولُ بقاء المرء سمٌّ مُجَرَّبُ

على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأَهليه، ومَنْ يتغرَّب

هكذا تجسد صدى الاغتراب الذاتي في شعره، وتجلى بالزهد والتمسك، والتقشف، والتشاؤم والشك والقلق... وحين جعل ذلك انتصاراً على اغترابه فإنه رأى في الفناء والموت اغتراباً لا دواء له... وهذا كله ينقلنا إلى الاغتراب الموضوعي.

ب ـ الاغتراب الموضوعي:

إذا كانت نفسية المعري وصفاته ورحلاته قد أدت إلى اغتراب ذاتي يستند إلى فلسفة عقلية، ومذهب زهدي مؤرق اتجه فيه إلى العزوف عن الدنيا وملذّاتها، فراح يشن حملة على كل من أقبل عليها... فإن ذلك كله قد أدى إلى وجود أنماط شتى من الاغتراب الاجتماعي الواقعي، والفكري الديني، والثقافي السياسي. وقد قوَّى هذه الأنماط المرحلة الزمانية التي عاش فيها إذ كانت حبلى بالأحداث والآراء والمذاهب الفكرية والسياسية، وهذه وتلك أدت إلى سطوع مظاهر الاغتراب في أدبه. فالحياة بأحداثها المرة، وطبيعتها القاسية أوصدت أبواب الرجاء لديه، وأصابته بقلق وجودي تصاعدي لا متناهٍ... فوجد نفسه في مواجهة زمان يطحن الآمال والرغبات ومكان لا يرى فيه ما يرضيه، فالزمان استدعى كل أشكال الضغائن والمصائب ليرمي بها المعري طوال خمسة عقود من الزمن بين ظهراني مجتمعه في المعرة، فعبر عنه في مقطعته الآتية:(81)

---

(81) لزوم ما لا يلوم 315/1، والأَنضاء؛ واحد نِضْو: المهزول من الإبل الذي أتعبه السير. والسخائم: الضغائن، واحدتها (سخيمة).

حياتي، بعد الأربعين، منيَّةٌ   ووُجْدان خِلْفِ الأربعين فُقودُ
فمالي، وقد أدركْتُ خمسة أَعقُدٍ؟   أَبيني وبين الحادثات عقودُ؟!
كأنَّا من الأيام فوق ركائبٍ   إذا قِيدَت الأَنضاءُ، فهي تقود
فدلَّ هَجيرٌ، في زمانك، أنه   سخائم في أحشائه، وحُقود

وفي ضوء هذا النص فإن الاغتراب الموضوعي يتجلى في كثرة ما يستولده الزمان من مصائب يخص بها الشاعر... وهذا ما يدعونا إلى الوقوف عند عدد من مظاهر الاغتراب الموضوعي في شعره.

ومن بعدُ سنشير إشارة سريعة إلى أشهر مصنفاته النثرية، وما تشي بنيتها وطبيعتها من ظواهر اغترابية. فأدب المعري يجسد مذهب النزوع الاغترابي الرومانسي الحزين، في الوقت الذي كشف عن تنافر عجيب بينه وبين مجتمعه، ولا سيما حين اعتزله جسداً؛ بيد أنه لم يعتزله ثقافة وفكراً، فقد ظلت روحه طامحة إلى أن يعيش في قلب الحياة، وإن ثار على أساليب أهلها في طلبها.

أ ـ الاغتراب في الشعر:

لما كان ذلك كذلك صار لزاماً علينا أن نجلي عوامل الاغتراب في شعره وبعض مظاهره الموضوعية، وأن نبرز أهم الأحداث التي جرت في هذا المقام، وأن نمثِّل لها بشواهد شعرية في إطار ما رأيناه من ظواهر اغترابية أخرى وقعت هنا أو هناك تتصل بالمكان والزمان من وجوه عدة كالسياسة والمجتمع والعقيدة والفكر...

1 ـ الاغتراب السياسي/ الفكري:

يبرز هذا النمط في (ضعف الخلافة العربية العباسية وسيطرة البويهيين عليها) وفي (سخطه على المستبدين والظلمة من طبقة الحكام) وقد أدى كل منهما إلى استقلال الولايات عن المركز إذ نشأت ولايات مذهبية وعرقية، فاستقل الفاطميون في مصر وشمال أفريقية، والحمدانيون في حلب، والغزنويون في خوارزم ومن ثم نشأ لديه اغتراب مكاني/ زماني واضح مبني على اغتراب فكري سياسي بعيد المدى، لذلك يقول في قصيدة له بلغت (15) بيتاً:(82)

لم أرض رأي ولاة قومٍ لقبوا   ملكاً بمقتدر وآخر قاهرا
هذي صفات الله جل جلاله   فالحق عن هجر الغواة مُظاهرا
كم قائم بعِظاتهِ مُتفَقِّهٍ في   الدين، يوجد حين يُكشَف عاهرا
فتجنَّبن متوافقين على الأذى   متخالفين بواطناً وظواهرا
ملكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل   ملؤوا الديار ضوراباً ومزاهرا

ولا يمكن للمرء في هذا الشأن أن ينسى رؤيته لهؤلاء الملوك والأمراء والولاة والوزراء ، فقد غدوا أجراء لغيرهم، إذ غلبوا على أمرهم كما غلبت الرعية. ولذلك قال:(83)

---

(82) لزوم ما لا يلزم 510/1 وانظر المهرجان الألفي لأبي العلاء 179 ـ 189.

(83) لزوم ما لا يلزم 155/1.

والظلم عندي قبيح لا أجوّزه   ولو أُطعت لما فاؤوا بأجلاب

وهنا يكمن اغتراب نفسي عال لكثرة الظلم والقهر ولضياع وحدة الأمة سياسياً واجتماعياً ولاسيما حين سيطر الروم على مقدرات الأمور. فالشعور بالاغتراب السياسي قرين للاغتراب الاقتصادي وكلاهما حافز للأمة كي تعود إلى جوهرها العربي الأصيل، ما يعني أن اغترابه متجذر في وعيه الفكري السياسي لكل ما يراه من فقدان المساواة والعدل في الحياة السياسية والاقتصادية ولاسيما ما يتعلق بتوزيع الثروة، فهناك عدد قليل من الناس تمرغوا في حياة البذخ، وأسرفوا في بناء القصور على حين تعيش الأكثرية في حرمان وجوع وفقر وخرائب ولذلك يقول:(84).

إن الأديم الذي ألقاه صاحبُه   يُرْضي القبيلة في تقسيمه شُرَكا

ولهذا فلما سمع ما سمعه من أخبار (المعزّ لدين الله الفاطمي) ــ والي مصر وخليفتها ــ شغف بنهجه في التعفف عن مال الرعية، وتحريم النبيذ،... وتواضعه وتقشفه، واحتقاره للألقاب، وارتفاعه عن مفاسد المجتمع، وابتعَاده عن الشهوات المادية والدينوية...(85).

لهذا يستعرض حال الأمة السياسي فلا يجد ما يسره فيتمنى أن يجنَّه قبر ما ليخلصه من ذلك فيقول:(86)

---

(84) لزوم ما لا يلزم 229/2 وانظر الاغتراب في الشعر العباسي 178 ــ 181.

(85) انظر زوبعة الدهور 47 ــ 50 وانظر لزوم ما لا يلزم 502/1 و514 والاغتراب في الشعر العباسي 129 ــ 132 و 185 ــ 187.

(86) لزوم ما لايلزم 54/1 وانظر فيه 518، الثواء: الإقامة بالمكان. أَنَى: حان وقرب. صحراؤها: كناية عن القبر. فترت: ضعفت. يَغُولها: يهلكها. الإسراء: السير في الليل. عَدَوا: تجاوزوا. أجراؤها: خُدّامها..

طال الثواء، وقد أنَى لمفاصلي   أن تستبدَّ بضَمّها صحراؤها
فَتَرت، ولم تفْتُرْ لشُرْب مدامةٍ   بل للخطوب، يَغُولُها إسراؤها
ملَّ المقام فكم أعاشر أمَّةً   أمرت بغير صلاحها أمراؤُها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   فعَدوا مصالحها وهم أمراؤها
فِرَقاً، شعرتُ بأنها لاتقتني   خيراً، وأن شرارَها شعراؤها

فالاغتراب السياسي عند أبي العلاء يتمثل بمظاهر شتى افتقدها الساسة في حكمهم وإدارتهم، ما زاده اشمئزازاً ونفوراً. فهو أنَّى تلفَّت وجد القهر والظلم والاستغلال و... لا همَّ للحكام إلا المتعة واللذة؛[87] ويمثل ذلك قوله:

ملوكنا الصالحونَ كلهمُ   زيرُ نساء يهشُّ للزيَرَه

2 ـ الاغتراب الفكري/ الوطني:

يستشعر الباحث أن هذا النمط الاغترابي يكمن في نشوب الصراعات بين الفاطميين والحمدانيين وبين هؤلاء وغيرهم، إذ كان السبب وراء توتر مشاعره ما فرض عليه شد النكير على جميع الفرق الفكرية؛ ومذاهبها. وهذا النمط يؤكد أنه مشغول بأحوال الناس في واقعهم وتاريخهم، يسعى إلى إصلاحهم اجتماعياً وسياسياً وخلقياً... ما يفيدنا بأن اغترابه السياسي الفكري الوطني إنما هو اغتراب إيجابي لم يكن انكفاء عن المجتمع لمجرد الانكفاء، ونقداً لمجرد النقد... أي إن سوء ظنه في

---

[87] انظر ـ مثلاً ـ اللزوميات 54/1 و 2/ 32 و35 و 138.

قيادة هذا المجتمع الذي يعيش فيه غَذَّى عناصر اغترابه الذاتية من واقع سياسي/ فكري فاسد يتقاتل فيه أبناء الدم الواحد والثقافة الواحدة والعقيدة الواحدة وقد فرّقتهم الأهواء والشيع؛ فقال: (88):

ما كان، في هذه الدنيا، أخورَشَدٍ   ولا يكون، ولا في الدهر، إحسان

وإنما يتقضّى المُلْك عن غِيَرٍ   كما تقضَّت بنو نَصْرْ وغسّان

بنو أمية بالشامية دين لهم   والهاشميون والتْهُم خراسان

ولست آمن أن يدعى إمامكم   من عالةِ الزّنج، أو ربَّته مَيْسان

والرأي أن تبعث الأنضاء واحدةً   إلى دمشق، فبئس الدار بيسان

فالحس الاغترابي الوطني والسياسي لتحليل الأحداث ودراستها فرض عليه أن يتوجه بالمدح إلى أمراء حلب من بني حمدان لأنهم وقفوا في وجه الروم يصدون غاراتهم وغزواتهم؛ على تخاذل أمراء كثيرون غيرهم، فضاعت الأمة. ومن هنا نفهم سخريته المرة من هؤلاء الأمراء، حين يصوّر النساء يرثن أسلحة آبائهن وليس هذا من شأنهن فرحن يبعنها لأنهن لم يجدن من يستعملها إلا الأمير سيف الدولة الحمداني (381 ــ392هـ) فمدحه لهذا السبب ومما قاله: (89)

---

(88) لزوم ما يلزم 501/2 وانظر الاغتراب في الشعر العباسي 129 ــ 132.

(89) شروح سقط الزند 56/1 ــ 58. الحجول: جمع حِجْل، وهو الخَلْخَال. والحِجال: الستور. والمدارع: جمع مِدْرعة: قميص المرأة. والمداري: جمع مِدْرى: الحديدة التي تثبت المرأة شعرها بها. المناصل: السيوف. السباسب: البراري. والموامي: القِفَار.

يَبِعْن تراث آباءٍ كرام   ويَشْرِيْنَ الحُجولَ أو الحجالا
يغالبن المَدَارعَ والمداري   ويُرْخصن المَنَاصل والنِّصالا
يمل بها السباسب والمَوَامي   فتىً لم تخشَ هِمَّتُهُ ملالا

ولست معنياً بتفصيل الحديث عن هذا النمط الاغترابي الذي يكشف عن مدى تمسك أبي العلاء بالقيم الوطنية والخلقية؛ وكان يطلبها في الطبقة الحاكمة قبل أن يطلبها عند العامة، لأنهم أقدر على تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والوفاء من الخيانة.

ولعل هذا ما نستكمله في الاغتراب الاجتماعي/ الديني.

3 ـ الاغتراب الاجتماعي/ الديني

إن ما يُشْعِر الإنسان بالاغتراب ضياع المعايير الاجتماعية الخلقية التي أدت إلى ضياع العلاقات الإنسانية النبيلة في المجتمع الذي تغيرت فيه المبادئ؛ فتمزقت فيه الروح بسبب الرغبات الشهوية والتهالك على الدنيا، وهو القائل: "الناس في هذا العصر يظهرون الزهد في الدنيا وهم أشرار يرغبون فيها"(90).

ومن ثم زادت غربته الاجتماعية تأثيراً في نفسه كلما لمس أصحاب السفه والدنايا فنهى عن الجلوس إليهم قائلاً: (91)

فزَجِّ العيش من صَفْوٍ ورَنْق   ودع شَجَنَيْك من هند ودعد

---

(90) انظر زجر النابح 30 والفصول والغايات 273.

(91) لزوم ما لا يلزم 385/1 زَج العيش: ارمِ به، واهجره. والرَّنْق: الكدر. والشجن: الحزن.

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدي

ويظهر الاغتراب الاجتماعي لديه مجسداً في انتشار المفاسد، وشيوع الكذب والنفاق والخلاعة واللهو... وزيادة الفقر في المجتمع. وكل ذلك كان أساس الظلم والقهر وفقدان العدالة الاجتماعية التي تزيد اغتراب الناس اغتراباً يبعدهم عن الرضا. لهذا جعل سلوك الناس الاجتماعي المنحرف سبباً وجيهاً — إن لم يكن أصلاً — لسخطه وغضبه على الناس وحياتهم، وانزوى بعيداً عازفاً عن ملذات الدنيا؛ ضاحكاً ممن يقبل عليها،... عاش حياة الزهد... وكفَّ عن الظُّرْف... فعاش حياة الاغتراب بكلّ خصائصها الفلسفية...، وطالما عرض لأشكال الاغتراب، في شعره، وهي أشكال غنية وثرية في الجانب الاجتماعي، ولاسيما حين اختار أشنع الأوصاف لكل من تساقط على الدنيا، بل انتقلت شناعة الوصف إلى الدنيا ذاتها. وهو يوحي إلينا بأنه لم يفتتن بالتقاليد الشكلية، ولا بالمعايير الاجتماعية المزدوجة، ولم يخدعه بهرج النفاق والأساليب الملتوية التي يمارسها عدد من الناس، بل استشعر غربته لذلك كله محدداً ظواهر الغش والنفاق والكذب و... لعله يستطيع أن يفعل شيئاً لمجتمعه. ومما قاله في مقطعة له من سبعة أبيات[92]:

قد ينصف القوم في الأشياء سيدهم ولو أطلقوا له ريباً لرابوه

لم يقدروا أن يلاقوه بسيئةٍ من الكلام فلما غاب عابوه

تحدثوا بمخازيه مكتمةً وقابلوه بإجلال وهابوه

وكم أرادوا له كيداً بيوم ردىً من الزمان، ولكن ما أصابوه

---

[92] لزوم ما لا يلزم 596/2 وانظر فيه 471/1 — 472 و 558 و 608.

أكدى فلاموه لمَّا قَلَّ نائلُه ولو حبَا الوَفْر زاروه ونابوه
لبَّى الغنيَّ بنو حواءَ، من طَمَع، ولو دعاهم فقير ما أجابوه

ولعل من أعظم تجليات الاغتراب الاجتماعي معاناته الضاغطة من رجال الدين، ما أدى به إلى اعتزالهم وسخطه عليهم؛ لأنهم كانوا يتمسكون بمظاهر التزمت في التدين، علماً أنهم يظهرون حالات من الوقار والورع على حين تتجلى الحقيقة المرة على غير هذا الوجه. فالاغتراب الاجتماعي/ الديني لديه لم يكن اغتراباً عن الدين القويم، ولكنه اغتراب عن أولئك الذين سخروا هذا الدين لمصالحهم الخاصة، ما فرض عليه عدم احترامهم؛ وعدم الثقة بهم، لما يتصفون به من الأساليب المنحرفة، فقال:(93)

شكوت من أهل هذا العصر غدرهم لا تُنْكِرَنْ فعلى هذا مضى السلفُ
وما اعترافي بعيب الجنس منقصة والعِيْنُ يُعْرَف في آنافها الذُّلفُ
أمسى النفاق دروعاً يُستَجَنُّ بها من الأذى ويقوّي سردها الحلف
إذا تخلفت أو خلّفت عن أمل سلّى همومي أني ليس لي خلف

فالمعري يعيش حالة اغترابية كبرى من استشراء النفاق والكذب والانحراف حتى صار ذلك علاقة فارقة تجدع بها الأنوف وبخاصة حين انتفى العدل لدى القُضاة، وصاروا يقبلون بشهود الزور ويمعنون بإصدار الأحكام الجائرة، ويسلكون سبيل

---

(93) لزوم ما لا يلزم 2/ 154 وانظر فيه 556 و 568 و 569 و588 السَّرْد: النَّسْج.

الرشى(94). ما يعني أن هذه الصفات قد حلت محل القيم النبيلة التي تقوم عليها العقائد والديانات. من هنا أحس بأنه غريب في عالم يتستر بالكذب والنفاق، فيبحث عن أمل بالنجاة.

وبناء عليه فإن اغترابه من مواقف رجال الدين يتجسد بكل توتره فيما رآه في المتصوفة الذين يتاجرون بالمظاهر الخادعة على حين انغمسوا بالكذب إلى آذانهم على حين أن التصوّف يسمو بالروح ويزكو بالنفس ويتحلى صاحبه بالفضائل؛ ويتخلى عن الرذائل؛ ويجعل قوام سلوكه التقشف والزهد؛ علماً أن المتصوفة يعتقدون بأنهم يصلون إلى الحقيقة بغير طريق العقل... (95)فيقول:(96)

صوفية ما رضوا للصوف نسبتهم حتى ادعوا أنهم في طاعة صوفوا

تبارك الله، دهر حشوه كذب، فالمرء منا بغير الحق موصوف

إن أثمر الغصن فامتدت إليه يدٌ تجنيه ظلماً فليت الغصن مقصوف

ويكفي المرء وقوفاً عند النص السابق أن يرى فيه هذا التهكم الشديد من المتصوفة، ثم تلك الأدعية التي تشي برفضه سلوك هؤلاء القوم... فالنص يمثل حالة نفسية اغترابية تؤكد موقف أبي العلاء من المتصوفة وليس من التصوف نفسه؛ بدليل (حتى ادعوا أنهم في طاعة صوفوا). فهو يبحث عن المتصوفة الذين يحققون طموحه وأفكاره، ويوصلونه إلى الدين النقي الصافي، ولكن بحثه عنهم كان دون جدوى... لذلك علَت نبرة الاغتراب لديه، ولا سيما حين عمد إلى تصوير هذا الاغتراب بلغة

---

(94) لزوم ما لا يلزم 2/ 96. و 138.

(95) انظر المعجم الفلسفي 282/1 ــ 284 والاغتراب في الشعر العباسي 169 ــ 171.

(96) لزوم ما لا يلزم 2/ 155. وانظر زجر النابح 129.

شعرية عظيمة الإيحاء في الوصف الساخر.

فالسلوك الذي مارسه رجال الدين وأهل التصوف مغاير لما تفرضه عليهم التنشئة الدينية والاجتماعية الحق، ما جعله يعاني اغتراباً بالغاً في توتره، أدى به إلى السخط على كثير منهم ومما قاله في هذا الشأن:[97]

قد اختل الأنام بغير شك   فجدُّوا في الزمان وألعبوه
وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوّده أبوه
ومادان الفتى بحجىً ولكن   يعلمه التدين أقربوه
وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شيء رتبوه
وغَيَّر بعضهم أقوال بعض   وأَبطلَت النُّهى ما أوجبوه
فلا تفرحْ إذا رَجَّبْتَ فيهم   فقد رفعوا الدنيَّ ورجَّبوه

فالقصيدة برمتها والبالغة (65) بيتاً تكاد تمور باغتراب يتماهى فيه التوتر والقلق والغضب على فساد العقيدة وخبث الطوية... ما جعل نفسه تتأبى عن مجاراتهم في ممارستهم لمذاهبهم في التدين والسلوك. ومن ثم ما من أحد لم يعد يعرف أن الرأي يتجه إلى أن باب الفن غير باب الأخلاق والتدين، بيد أن أبا العلاء استطاع أن يصوغ قناعاته وكبرى اليقينيات الدينية في فن لطيف مثير دون أن يتحرز من أي شيء ما أدى إلى اتهامه في عقيدته وصحة مذهبه[98]. وإذا كنا نرى أن أبا العلاء أعلى من

---

[97] لزوم ما لا يلزم 2/ 601 رَجَّبوه: عظّموه. وانظر زجر النابح 118و130 ــ 131.

[98] انظر الإنصاف والتحري 39 ــ 49.

منزلة العقل فإنه ما فعل هذا إلا ليخلص الدين مما علق به من جهالات رجال الدين، علماً أنه وقع بشيء منها؛ حين ألزم نفسه بالامتناع عما سخره الله لعباده. ومهما قيل في هذا وذاك فإننا نؤمن بما نفذ إليه القاضي الجرجاني (علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ المتوفى 391هـ/ 1000م) من قبلُ في قوله: "لو كانت الديانة عياراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين..."[99] ونؤمن كذلك بأن هذا الصراع بينه وبين رجال الدين وغيرهم من الخاصة قد أدى إلى زيادة نفوره منهم، ومن ثم زيادة الاغتراب النفسي والاجتماعي لديه...

وقد سار الثعالبي على إثر الجرجاني حين قال في (اليتيمة): "على أن الديانة ليست عياراً على الشعراء، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر..."[100]. ولعل هذا كله يتكامل في الاغتراب الثقافي/ الديني ـ الفلسفي.

4 ـ الاغتراب الثقافي/ الديني ـ الفلسفي:

يتجلى هذا النوع في شيوع ظواهر عرقية ومذاهب فكرية منحرفة مثل ظهور القرامطة والشعوبية، والزندقة وجماعة إخوان الصفا، وآراء الفلاسفة المتأثرين بالفلسفة اليونانية ولاسيما فلسفة أرسطو... وانتشار مذاهب أهل الكلام، وتقليد المذاهب الشرعية ومحاكاة القديم لقدمه.. هكذا أخذت الثقافات المتعددة تنتشر في المجتمع العربي لتشكِّل منطقها وفلسفتها وفق الرؤى التي تقوم عليها... وهذا كله جعل المعري يردد التفكير فيها ويحاكمها محاكمة عقلية، محاولاً التوفيق بين العقل المجرّد والإيمان

---

[99] الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي ط3 ـ دار القلم ـ بيروت ـ لبنان ـ د/ تا؛ ص 64.

[100] يتيمة الدهر 1/ 168.

الصحيح، فوقعه في صِدَام قاسٍ مع كثير من تلك الطوائف والمذاهب والعقائد(101)...

ولعل ذلك كله كان وراء الاغتراب الذي عاش فيه أبو العلاء وهو اغتراب مركّب هذه المرة؛ سياسياً وفكرياً، وفلسفياً، ودينياً، وعرقياً، واجتماعياً، وقبل ذلك هو اغتراب نفسي لا نظير له في الاضطراب والقلق الوجودي، ولذا يقول(102):

والأرض للطوفان مشتاقة   لعلها من دَرَنٍ تُغْسَل
قد كثر الشر على ظهرها   واتّهم المُرْسِل والمُرْسَل
وأمْقرت أفعال سكانها   فهم ذئابٌ في الفضا عُسَّل

وقال: (103)

ومتى ركبت إلى الديانة غَالَها   فِكرٌ، على حُسْن الضمير، دسائس
والعقل يعجب والشرائع كلها   خبر يقلد لم يقسه قائس
متمجسون ومسلمون ومعشر   متنصّرون وهائدون رسائس
وبيوت نيران تُزَار تعبُّداً   ومساجد معمورة وكنائس

---

(101) انظر زوبعة الدهور 36-46 ولزوم ما لا يلزم 518/1.

(102) لزوم ما لا يلزم 81/2 ــ 282، أمقرت: صارت مُرَّة كالمقر وهو الصبر. والعُسَّل: الذئاب المضطربة في عدوها.

(103) لزوم ما لا يلزم 31 ــ 32، والرسائس: الأخبار غير الصحيحة.

والصابئون يُعظِّمون كواكباً   وطباعُ كُلٍّ، في الشرور، حبائس

أَنَّى ينال أخو الديانة سؤدداً   ومآرب الرجل الشريف خسائس؟!

فالاغتراب في هذا النص وأمثاله يبرز عنده حالة الخلاص من الطوائف الفكرية والفلسفية والدينية التي كسرت لديه كل أفق للتوقع، حين نَصَّبت نَفْسَها قيّماً يمارس سلطته على بني البشر، فآل الأمر إلى صراع مرّ وقاسٍ، صراع أدى إلى كثرة الضحايا في معاركها المتلاحقة فيما بينها... لهذا انتصر للعقل بوصفه يقي الإنسان من أتون السقوط في هذا الصراع... وهنا يمكننا أن نفهم مدى الرعب الذي أصاب المعري من تلك الشرائع والطوائف؛ فصار يخشى على نفسه، وعلى بني جنسه الأصفياءِ. وبذلك كله تتمثل غربته؛ بل اغترابه الوجودي والفكري والديني، ما يؤكد أن حديثه عن الديانات وأصحابها لا يخرج عن مفهومه للظاهرة الاجتماعية، التي تولد وتموت، وتتحول من شكل إلى شكل؛ وبهذا يثبت أنه لا يتحدث عن الدين الحقيقي أو يقدم على النيل منه.

هكذا ظهرت رؤيته الاغترابية في آثاره؛ فقد تجلت اغتراباً ثقافياً وفكرياً دينياً ما جعله ينشد هذه المقطعة:(104)

يكفيك حزناً ذهاب الصالحين معاً   ونحن بعدهم في الأوطان قُطَّان

إن العراق وإن الشام من زمن   صِفْرانِ ما بهما للمُلْكِ سلطان

ساس الأنام شياطين مسلطة   في كل حصر من الوالين شيطان

---

(104) لزوم ما لا يلزم 505/2، والنجر: الأصل ومرطان من الرطانة، وهي كل كلام لا يفهم. وكلاب: بنو كلاب. والأشطان: الحبال. والأعطان: مبارك الإبل.

من ليس يحفل خُمْص الناس كلهم   إن بات يشرب خمراً وهو مِبْطان
تشابه النَّجْر: فالرومي منطقه   كمنطق العرب والطائي مِرْطان
أما كلاب فأعيا من يغالبهم   كأن أرماحهم في الحرب أشطان
متى يقوم إمام يستقيد لنا   فتعرف العدل أجبال وغيطان

صلوا بحيث أردتم فالبلاد قذى   كأنما كلها للإبل أعطان

ومن ثم فإن تكرار الصوت اللغوي الثقافي التصويري لظواهر الاغتراب تعبّر عن مدى المعاناة المرعبة التي يستشعرها المعري... ما جعل اغترابه يستند إلى تشخيص هذه الأمراض والأعراض الفاسدة التي ترسخت في المجتمع، بل إنها تناسخت وتوالدت بفعل الأسباب التي أوجدتها في عصر سياسي بائس يسير في طريق التمزق وإحداث دويلات الطوائف والأمراء والمذاهب... ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نرى ظواهر الاغتراب في أدبه بمعزل عن الأسباب التي أوجدتها...

وأخيراً نقول: لعل ما يلفت القارئ في شعره تكرار الحديث عن مضامين الغربة والغريب والغرباء والاغتراب وكل ما يدور في فلك هذه المعاني بوصفها منطلقاً لعوامل الاغتراب في ديوانيه (سقط الزند، ولزوم ما لا يلزم)، وقد برز من خلال البيت والأبيات والمقطوعات... والقصائد، علماً أن المقطوعات أكثر وهذا يؤكد أن استقصاء ذلك وربطه بالاغتراب الزماني والمكاني سوف يحتاج إلى صفحات كثيرة، ما يفرض علينا التوقف عند هذا الحد، والإشارة الموجزة والسريعة للاغتراب

في النثر مركزين على الاغتراب اللغوي والاغتراب في بنية الكتاب المعمارية، وعلاقة ذلك بنفسيته وعقله الاغترابيين..

ب ــ الاغتراب في النثر:

ــ الاغتراب اللغوي والفني:

لا يمكن للمرء أن يتجاهل نثر أبي العلاء وهو يتناول ظاهرة الاغتراب الذاتي والموضوعي، بل لا نغالي إذا قلنا: هو مثل شعره مبني في طبيعته وماهيته الدالتين على مفهوم الاغتراب وعوامله ومظاهره. ويمكن أن نتوقف عند الاغتراب الموضوعي اللغوي والفني وقفة مجتزأة في مصنفاته النثرية التي اخترنا أربعة منها، وكل مصنف يحتاج إلى وقفات طويلة. فالاغتراب اللغوي والفني يبرز لديه جلياً في نثره كله كما برز في لزومياته واضحاً، سواء في بنية اللفظ والتركيب المستندة إلى بنيته الفكرية أم في بنية مصنفة منهجاً وبنية فنية ومعمارية.

1ــ الاغتراب في رسالة الغفران:

تركز الرسالة في بنيتها على المفارقة بين الجنة والنار بوصفها اغتراباً مؤرقاً لما وقع في الحياة الدنيا. لذا شرع المعري ينزل كل من أدخلهم الحياة الآخرة منزلته في الجنة أو في النار. وفي صميم ذلك يتناول المفارقة في حياة مواضع الشعراء والأدباء ويركز على التشخيص المثير والمدهش(105). ولمّا كان يحقر الرُّجَّاز لفنَّهم وضعهم في آخر الجنة تحقيراً لهم ... أما المفارقة في علاقته بابن القارح فهي ذات تأثيرات اغترابية تصاعدية... ولاسيما حين يسخر منه بقوله: "الشيخ بالنحو أعلم من (سيبويه) وباللغة والعروض من الخليل"(106) إن غرابة بنية (رسالة الغفران) تنبثق من مشكلة التنافر بين أبي العلاء وابن القارح، لذا أدخله جنة الغفران، بعد أن ملأ نفسه

---

(105) انظر رسالة الغفران 129 وما بعدها.

(106) رسالة الغفران 26 وانظر نثر أبي العلاء المعري 138 و 140 ــ 147.

بالحزن واليأس،... ومن هنا شرع المعري يدخل الشعراء الجنة ببعض أبيات قالوها، على الرغم من أن حياتهم امتلأت بالشر كالحطيئة... وكذا فعل مع بعض الأدباء والنحويين...

هكذا كان المعري يخترق المألوف ويتجاوز حدود العناصر الجوهرية للواقع الحقيقي... ومن ثم فإن الصور المشهدية البراقة والممتلئة بالحيوية والألوان والحركة تردُّ على سجوف الظلام التي عانى منها المعري، فجعل الشعراء العميان مبصرين في جنته. ولعل هذا كله يؤكد حضور عاهة العمى لديه؛ إذ كان يتحرك في عالم غيبي ولكنه مشخَّص كما لو أنه حاضر... وهو عالم مشخص مركب تركيباً مثيراً أنتجه خيال مبدع خَلَّاق(107)... وبهذا كله يرد على حالته الاغترابية في الحياة الدنيا، بمثل ما أثبت في جنته مدى المعارف التي تمتّع بها...

2ـ الاغتراب في رسالة الصاهل والشاحج:

لعل بناء الرسالة على الألغاز والرموز في القسم الأول ثم فك الرموز في القسم الثاني وفق ما هو معروف في عصره من انتشار المذاهب السياسية والفكرية المنحرفة، ومنها الزندقة يظهر مدى عناية المعري بالتصوير الغريب الممزوج بالسخرية المرّة ولاسيما حين يتحدث عن شعراء التكسب، على لسان (الشاحج) وهو (البغل) (108)، فيُبرز موقفه من قبيح فعلهم. فالرسالة تستند إلى حوار مثير غريب بين (الشاحج)، و(الصاهل ــ الحصان) ثم بينه وبين الثعلب ليوضح أن العلاقة كانت طيبة بين مصر وحلب، وأن عزيز الدولة في مصر كان ينوي صدَّ الروم عن حلب... ثم يتغير الموقف فيتراجع عزيز مصر عن غزو الروم... على حين مكث أبو العلاء في المعرة يلتقط الأخبار والفتن التي دهمت المعرة وغيرها من بلاد الشام، علماً أن الدولة

---

(107) انظر إبداع ونقد، ص30 وما بعدها ونثر أبي العلاء 233 ــ 242.

(108) انظر نثر أبي العلاء المعري 157 ــ 168 و 244 ــ 247.

العباسية كانت تعيش نزاعاً قاسياً بين بغداد والدولة الفاطمية في مصر...

وقد آثر المعري بناء رسالته على لسان الحيوان متأثراً بابن المقفع في (كليلة ودمنة) (109)...

وبهذا كلّه يعيش المعري حالة اغترابية في تأليف بنية كتابه على لسان الحيوان، بمثل ما يعيش حالة اضطرابية اغترابية من الفتن السياسية التي تجتاح البلاد والعباد، وفي صميم ذلك كان يثبت أنه ذو ثقافة لغوية ونحوية عجيبة.

3ـ الاغتراب في رسالة الملائكة:

اشتملت على ست عشرة مسألة توجه فيها أبو القاسم إلى أبي العلاء فأجابه عنها... ويظهر للمتأمل فيها أنها لم تكن خالصة للصرف على ما قيل: إنها تعالج مسائل صرفية تدل على ثقافته اللغوية العجيبة وتفرده في آراء خاصة...

ولعل المفارقة العجيبة تسمية أبي العلاء لها برسالة الملائكة لأنه افتتحها بالكلام على ملك الموت، وأتبعه بذكر جملة من الملائكة مثل عزرائيل وإسرافيل وجبرائيل وميكائيل، ومنكر ونكير ورضوان... ونتساءل عن فكرة الاغتراب فيها فنجد أنه يتخيل نفسه قد مات وجاءه ملك الموت فأراد تأخير قبض روحه فما وجد أفضل من المسائل الصرفية؛ لكونها مسائل لغوية شائكة اختلف فيها علماء الصرف... ومن ثم أراد المعري أن يثبت قدرته في هذا العلم؛ وتفرده في آراء يناقش فيها أولئك العلماء... ولهذا طفق يتناول مسائل صرفية بدأت بتصريف لفظ (ملك) وآراء اللغويين وعلماء الصرف فيه، وينقدهم(110). فكل ما في الرسالة يدل على نزوع اغترابي تجاه الآخرين إذ كان يعتد برأيه أيما اعتداد.

---

(109) انظر نثر أبي العلاء المعري 258 ــ 262.

(110) انظر مقدمة رسالة الملائكة (م) و(ن).

4 ـ الاغتراب في الفصول والغايات:

يعد هذا الكتاب نمطاً فريداً آخر في التأليف، وهو ينطلق من حالة ذاتية اغترابية عاطفية عالية التوتر... إذ يتحدث فيه عن فلسفته في انتظار الخير وترقبه(111)... فقد عاش ما يزيد على ثلاثين سنة يرقب السعادة فلم يظفر بها "ولم يبلغ ما كان يريد" ما جعله يتجه في "حياته وجهة جديدة"(112). ولعل هذا الاغتراب القلق والمضطرب قد برز في فلسفته الملتوية في هذا الكتاب، في الوقت الذي ظهر في ألفاظه وعباراته الغامضة تارة، أو الملتوية في الدلالة تارة أخرى. فهو لا يسير على منهج واضح في عرض آرائه ومذهبه، ولاسيما حين طفق يوافق بين فلسفة أبيقور والزهد الإسلامي...

ثم ظهرت غرابته وغربته في الحديث عن الكون الذي سخر لخدمة الإنسان والانتفاع به... إذ لا يصح الاستمتاع به "لأنه لا يصح ولا يستقيم إلا إذا خلا من الألم والظلم والعدوان"(113) وهذا محال.

ولعل الأغرب من ذلك كله أنه التزم في هذا الكتاب لزوم ما لا يلزم من السجع والقيود فكلف الناس ما لا يطيقون... فانطبق الاغتراب في حياته على الاغتراب في نثره.

خاتمة:

هكذا تبين لنا أن كل من يتأمل في أدب المعري عامة وشعره خاصة يدرك أن علاقة الاغتراب النفسية الاجتماعية هي جزء من اغترابه الثقافي الفلسفي والعقيدي العقلي... إذ اقتضت فلسفته الفكرية أن تضعه في مواجهة الوسط الثقافي والديني الذي

---

(111) انظر الفصول والغايات 28 ـ 49 و 76 و 259 و 299 ـ 311.

(112) انظر المهرجان الألفي لأبي العلاء 21 والفصول والغايات 279.

(113) المرجع السابق ص 23.

يحيط به؛ ومن ثم كانت صور الاغتراب لديه أسلوباً ثائراً عبر فيه عن حالات تغيير الوضع الاجتماعي وفق منطق عقله ووفق الشروط الموضوعية التي ارتضاها والتي صارت مدار نزاع فلسفي فكري اجتماعي بينه وبين المجتمع. وليس هناك شك في أن اغترابه حمل بعده الذاتي العاطفي، فاتسم برومانسية عالية حين كان يسعى إلى تغيير الفرد والمجتمع على السواء مهما اتصف بماهية التمرد والتحرر من القيود القديمة، ومهما كانت قدرته على مواجهة واقعه الفاسد؛ أياً كان المسؤول عنه سلطة أو هيئة؛ فلم يضعف أو يتردد أمام أي موقف صادم له ولفلسفته... كان يثبت على الدوام أنه يكره الكذب والغش والنفاق والخداع... وحين لم يستطع أن يغير هذا الواقع لم ينزلق إلى اغتراب نفسي داخلي مرضي؛ عصابي؛ بل استمر ينقد مجتمعه وعاداته وتصرفات أبنائه نقداً لاذعاً ما جعله علامة فارقة في فلسفة الإبداع والفكر العربية. هكذا كانت غربة المعري غربة مركَّبة بخلاف غربة الثأر التي كانت واقعة ذاتية عند امرئ القيس، وذاتية نفسية طامحة، للثأر عند المتنبي، ومكانية عند المتلمس وأبي فراس أكثر منها ذاتية...

وأخيراً أقول: لست أزعم أنني استكملت وجوه بحث الاغتراب، بوصفه بحثاً شائكاً، وأرجو له أن يتكامل في قابل الأيام.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

1 ــ إبداع ونقد (قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي) ــ د. حسين جمعة ــ دار النمير للطباعة والنشر ــ دمشق ــ 2003م.

2 ــ الأعلام ــ خير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1977م.

3 ــ الاغتراب ــ ريتشارد شاخت ــ ترجمة كامل يوسف حسين ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ط1 ــ 1980م.

4 ــ اغترابات أبي العلاء المعري ــ حسان عطوان ــ ديوان شعر ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ 2002م.

5 ــ الاغتراب في الشعر العباسي (القرن الرابع الهجري) ــ د. سميرة سلامي ــ دار الينابيع ــ دمشق ــ ط1 ــ 2000م.

6 ــ الاغتراب الكافكاوي ورواية المسخ نموذجاً ــ إبراهيم محمود ــ مجلة عالم الفكر ــ مجلد 15 ــ عدد 2 ــ الكويت ــ 1984م.

7 ــ الإنصاف والتحري في دفع الظُّلْم والتَّجرِّي عن أبي العلاء-للشيخ ابن العديم الحلبي-تحقيق د.عبد العزيز حرفوش-دار الجولان للطباعة-دمشق-ط1- 2007م.

8 ــ ابن باجة وفلسفة الاغتراب ــ د. محمد إبراهيم الفيومي ــ دار الجيل ــ بيروت ــ ط1 ــ 1988م.

9 ــ بغية الوعاة للسيوطي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ مطبعة البابي الحلبي ــ دمشق ــ 1964م.

10 ــ تاريخ بغداد ــ لأبي بكر أحمد البغدادي ــ المكتبة السلفية ــ مصر ــ 1931م/ نسخة مصورة عن طبعة المدينة المنورة.

11 ــ تجديد ذكرى أبي العلاء ــ د. طه حسين ــ القاهرة ــ ط4 ــ 1951م.

12 ــ تعريف القدماء بأبي العلاء ــ دار الكتب المصرية ــ القاهرة ــ 1944م.

13 ــ الجامع في أخبار أبي العلاء ــ محمد سليم الجندي ــ دمشق ــ 1962م.

14 ــ حديث الأربعاء ــ طه حسين ــ دار المعارف بمصر ــ ط 11 ــ 1976م.

15 ــ دائرة المعارف البريطانية ــ (مادة الاغتراب) ــ E. B.

16 ــ ديوان أبي الطيب المتنبي ــ شرح العكبري ــ تحقيق مصطفى السقا ورفيقه ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان ــ د/ تا.

17 ــ رسالة الصاهل والشاحج ــ لأبي العلاء المعري ــ تحقيق د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ــ دار المعارف ــ القاهرة ط 2 ــ 1984م.

18 ــ رسالة الغفران ــ لأبي العلاء المعري ــ تحقيق د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ــ دار المعارف ــ القاهرة ط 8 ــ 1990م.

19 ــ رسالة الهناء ــ لأبي العلاء المعري ــ تحقيق كامل كيلاني ــ المكتب التجاري ــ بيروت ــ ط 2 ــ 1977م.

20 ــ رسالة الملائكة ــ لأبي العلاء المعري ــ تحقيق محمد سليم الجندي ــ دار صادر ــ بيروت ــ 1992م.

21 ــ زجر النابح ــ لأبي العلاء المعري ــ جمع وتحقيق د. أمجد الطرابلسي ــ مطبوعات مجمع اللغة العربية ــ دمشق ــ ط2 ــ 1982م.

22 ــ زوبعة الدهور-مارون عبود-دار الثقافة ودار مارون عبود-بيروت-ط4-1980م.

23 ــ شروح سقط الزند ــ تحقيق الأستاذ (مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وحامد عبد المجيد وعبد السلام هارون وإبراهيم الإبياري) ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ 1986م.

24 ــ العقد الاجتماعي-جان جاك روسو-ترجمة ذوقان قرقوط-دار القلم-بيروت-د/ تا.

25 ــ أبو العلاء المعري ــ أحمد تيمور ــ القاهرة ــ 1940.

26 ــ أبو العلاء المعري.... حكيم المعرة ــ د. يوسف محمود ــ مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا ــ عمان ــ مج 14 ــ عدد 1 ــ 2009م.

27 ــ الغربة في الشعر الجاهلي-د. عبد الرزاق الخشروم-اتحاد الكتاب العرب-

دمشق - 1982م.

28 ــ الفصول والغايات ــ لأبي العلاء المعري ــ تحقيق محمود حسن زناتي ــ منشورات دار الآفاق ــ بيروت ــ د/ تا.

29 ــ لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) - لأبي العلاء المعري - دار صادر - بيروت - د/ تا.

30 ــ لسان العرب ــ لابن منظور ــ دار صادر ــ بيروت.

31 ــ مع أبي العلاء في سجنه - طه حسين - دار المعارف - مصر - ط13 ــ 1981م.

32 ــ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ــ لياقوت الحموي ــ تحقيق مرغليوث ــ دار إحياء التراث ــ بيروت ــ نسخة مصورة عن طبعة دار المأمون بمصر.

33 ــ المعجم الفلسفي ــ د. جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني/ بيروت، ودار الكتاب المصري/ القاهرة ــ 1978م.

34 ــ المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري - مجموعة باحثين - دار صادر - بيروت - د/ تا.

35 ــ نثر أبي العلاء المعري د. صلاح رزق - دار الثقافة العربية ــ القاهرة ــ 1985م.

36 ــ ندوة أبي العلاء المعري ــ مجموعة باحثين ــ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ــ وزارة التعليم العالي ــ 1997م.

37 ــ نقد الشعر في آثار أبي العلاء المعري - د. ناديا علي الدولة – دمشق - 1998م.

38 ــ الوساطة بين المتنبي وخُصومه ــ للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ــ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم - دار القلم - بيروت - د/تا.

39 ــ وفيات الأعيان وأبناء الزمان ــ لابن خلكان ــ تحقيق د. إحسان عباس ــ دار صادر ــ بيروت ــ 1994م.

40 ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - للثعالبي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1979م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/7/27.